أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

الجزء الأول

عائشة بنت طلحة
فاطمة بنت الحسين
ميسون بنت بَحدل
هند بنت المهلّب
الرباب بنت امرئ القيس
صفيّة بنت أبي عُبيد
عمرة بنت عبد الرحمن
حفصة بنت سيرين
فاطمة بنت المنذر
أمّ كلثوم بنت عليّ
خَيْرة أمّ الحسن البصريّ
سَودة بنت عمارة
فاطمة بنت عليّ
عاتكة بنت يزيد
أمّ الخير بنت الحُريش

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

عمرة بنت عبد الرحمن

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٧)

عمرة بنت عبد الرحمن

* قال الخليفة عمر بن عبد العزيز :

ما بقي أحدٌ أعلم بحديث عائشة من عمرة .

* وقال يحيى بن معين :

عمرةُ بنت عبد الرحمن ثقة حُجّة .

* وقال الإمام الذهبي :

كانت عالمة ، فقيهة ، حُجّة ، كثيرة العلم .

عَمْرَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحمن

حَدِيثُ عَمْرَةَ :

* كان الخليفةُ الورع التَّقيُّ عمر بن عبد العزيز[1] ـ رحمه الله ـ ، يخشى من ضَيَاع العلم وذَهَاب أهله ، فأمر بالشُّروع في تدوين الحديث الشَّريف مستنداً إلى آراء العلماء وكبار التَّابعين في عصره ، مستنيراً بأقوالهم واجتهادهم في هذا الشَّأن .

* روى ابن سعد في « الطَّبقات[2] » والبسويُّ في « المعرفة والتَّاريخ[3] » والخطيبُ البغدادي في « تقييد العلم[4] » عن عبد الله بن دينار قال :

كتبَ عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـ بالبريد[5] ـ إلى أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم ـ بالمدينة ـ : أنِ انظر ما كان منْ حديث

---

(١) توفي سنة (١٠١ هـ) رحمه الله .

(٢) الطبقات (٨/٤٨٠) .

(٣) المعرفة والتاريخ (١/٤٤٢) .

(٤) تقييد العلم (ص ١٠٥ و ١٠٦) .

(٥) « البريدُ » : كلمة عربية الأصل ، مشتقة من البُردة أي « العباءة » لأنَّ الرسل الذين كانوا يحملون الرسائل من بلد إلى آخر كان عليهم أن يلبسوا بردة حمراء للدلالة عليهم ، والبريد : هو الرسول الذي يحمل الرسائل .

رسول الله ﷺ ، أو سُنَّةٍ ماضيةٍ ، أو حديث عمرةَ فاكتبه ، فإني خفتُ دروسَ العِلْم وذَهَاب أهله .

* وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ هذا بلفظ : اكتب إليَّ من الحديث بما ثبتَ عندك عن رسول الله ﷺ ، وحديث عمرة .

* فَمَنْ عمرة هذه التي خصَّها عمر بن عبد العزيز بحفْظِ الحديث الشَّريف ؟ .

إنَّ عمرة المذكورة في قول عمر بن عبد العزيز هي : عَمْرة بنتُ عبد الرحمن بن سَعْد بن زرارة بن عُدُس الأنصارية النَّجارية ، المَدَنيَّة ، الفقيهة[1] . وجدُّها سعد من قدماء الصَّحابة وهو أخو النَّقيب الكبير أسعد بن زرارة ـ رضي الله عنه ـ .

* * *

عَمْرة في حجْر عائشةَ :

* في حجْر أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، نشأتْ عمرة بنت عبد الرحمن ، وقد حَبَاها الله حافظةً قويَّةً جعلتْها التلميذة النَّجيبة التي حفظت أحاديث أمّ المؤمنين عائشة وروتْ عنها ، فكانت بذلك سيِّدة نساء التَّابعين حيث كانت المحدِّثة العالمة الفقيهة الثِّقة الحجةُ .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠٧/٤) ، وتهذيب التهذيب (٤٣٨/١٢) ، والأعلام (٧٢/٥) ...

و « العمرة » : الشَّذرة من الخرز يُفصَّل بها النِّظم ، وبها سُمِّيت المرأة عمرة . (القاموس المحيط) .

* ولم يكن طلب عمر بن عبد العزيز من عامله بالمدينة تدوين حديث عمرة عبثاً ، بل إنما كان ذلك لاختصاص عمرة بمعرفة حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، واختصاص عائشة بمعرفة أحوال سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ . ويؤيد هذا ما ورد بأن القاسم بن محمد قال للإمام الزهري :

أراك تحرص على العلم ، أفلا أدلك على وعائه ؟ .

قال : بلى .

قال : عليك بعمرة بنت عبد الرحمن ، فإنها كانت في حجر عائشة ـ رضي الله عنها ـ .

قال ـ الزهري ـ : فأتيتها فوجدتها بحراً لا ينزف[1] ـ أو بحراً لا ينزف ـ .

* ويعود الفضل في هذه التربية الفريدة لأمنا عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ التي أثرت الدنيا بسادات العلماء ، وعلماء السادات من الصحابة والتابعين رجالاً ونساءً .

* ومما تجدر الإشارة إليه ـ هنا ـ أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ انتقى العلماء القائمين بالتدوين ، فأحسن الانتقاء ، وخص أحاديث ذات أهمية خاصة ، وخص عمرة بالذات لما جمعت فيها من صفات لا تكاد موجودة في امرأة تعاصرها من فقه وعلم بالحديث النبوي الشريف وضبط روايته وفهمه ، ومن ثم ملازمتها لأم المؤمنين عائشة

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/١١٢) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٥٠٨) .

ـ رضي الله عنها ـ ، وأخذها الحديث عنها ، وهذا مما زاد في رصيد عمرة في عالم الرّواية وعالم الحديث .

* * *

الفقيهة المحدّثة الرّاوية :

* قلنا : إنّ عمرة تربية عائشة ـ رضي الله عنها ـ وتلميذتها النّجيبة ؛ فلا غروَ أنْ تقتبسَ من شمائلِ عائشةَ ما جعلها عالمةَ المدينةِ وفقيهتها من النّساء التّابعيات في عصرها .

* ولم تتوقفْ عمرة في روايتها على أستاذتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ فحسب ، بل حدّثت أيضاً عن أمّ سلمة أمّ المؤمنين ، وعن أختها لأمّها : أمّ هشام بنت حارثة بن النّعمان الأنصاريّة ، وعن حبيبةَ بنتِ سهل ، وأمّ حبيبة حمنة بنت جحش ، وكلّهن صحابياتٌ فاضلاتٌ ـ رضي الله عنهن وأرضاهن ـ .

كما حدّثتْ عن الصّحابي رافع بن خديج الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ .

* وحدّث عن عمرة عدد من أكابر التّابعين وعلمائهم من مثل : ابنها أبي الرّجال محمّد بن عبد الرحمن ، وحفيديها : حارثة ومحمد ابني محمد ، وابن أختها القاضي أبي بكر بن حزم والزّهريّ ، ويحيى بن سعيد الأنصاريّ ، وعروة بن الزّبير ، وسليمان بن يسار[1] وآخرين .

---

(١) أحد الفقهاء السّبعة في المدينة .

ومن الفوائد اللطيفة عن هؤلاء السّبعة ما ذكره أحد الصّالحين قال : إنّ فقهاء المدينة =

وحديث عمر كثير في دواوين الإسلام ، وروى لها الجماعة .

* * *

نَمَاذِجُ مِنْ مَرْوِيَّاتِ عَمْرَةَ :

* من مرويات عمرةَ أنّها قالت :

لما حضرتْ زينب بنت جحش ـ أمّ المؤمنين ـ أرسل عمر بن الخطاب إليها بخمسةِ أثواب منَ الخزائن يتخيّرها ثوباً ثوباً ، فكفّنت فيها ، وتصدّقت عنها أختها حمنة بكفنها الذي أعدته لتكفّن فيه .

قالت عمرة : فسمعتُ عائشة تقول : ذهبتْ حميدةُ قفيدةُ مفْرَعَ اليتامى والأرامل[1] .

* ومن مرويات عمرة في الفقه والسّيرة ما رواه يحيى بن سعيد عنها أنها قالت : سمعتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول :

* خرجنا مع رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ذي القعدة ، ولا

= السّبعة إذا عُلّقت أسماؤهم على الحبّ لم يُنسَيْن ، وعلى رأس المصروع عُوفي ، وقد جمعهم بقوله مشيراً إلى ذلك :

لدفع صداع منع سوس أنمة ... إذا عُلّقتْ أسماؤهم ذهب العنا
سعيدٌ أبو بكر سليمان خارجة ... وعروة عبد الله قاسم له الثنا

وقال غيره :

ألا كلُّ مَنْ لا يقتدي بأئمة ... فقسمته ضيزى عن الحقّ خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجه

عن كتاب (منن الإيضاح للنووي ص ١٦٤ و ١٦٥) .

(١) الطبقات (٦/١١٠) .

نرى إلا أنّه الحج ، فلما دنونا من مكةَ ، أمر رسول الله ﷺ مَنْ لم يكن معه هديٌ إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة أن يحلّ .

قال يحيى بن سعيد : فذكرتُ هذا الحديث للقاسم بن محمّد ، فقال : أتتك والله بالحديث على وجهه[1] .

* ومن الجدير بالذّكر أنّ القاسم بن محمد نفسه ـ وهو أحد الفقهاء السّبعة ـ كان يسألُ عمرة عن حديث أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ لعلمه أنّها ورثتْ أكبر نصيب من علوم السّيّدة عائشة .

* ولعمرةَ كذلك جوانبُ مضيئةٌ في الرّواية ، فهذا أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ ، يستمعُ حديثها من أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حَزْم الذي قال : حدثتني عمرة بنت عبد الرحمن أنّها سمعتْ عائشةَ تقول حين رأتْ ما أحدثَ النّاس في صدقاتهم قالت :

يا سبحان الله ! ما أشبه بما قال الله تعالى في كتابه : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومُحَرّمٌ على أزواجنا وإنْ يكن مَيْتةً فهم فيه شُركاء ﴾ [الأنعام : ١٣٩][2] .

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/٣٩٣) ، والبخاري (٣/٤٤٠) في الحج : باب ذبح الرجل عن البقر نسائه من غير أمرهن ، ومسلم (١٢١١) .

(٢) تُحذّرُ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من عادةٍ سيّئة ظهرتْ في سلوك بعض النّاس هي : تفضيل الرّجل أولاده الذّكور على الإناث في توزيع ماله عليهم حال حياته ، ويكون هذا التحذير أشدّ إذا كان فيه حرمانٌ للإناث من المال ؛ ولعلّ ذلك التحذير إذ الدافع إلى التّفضيل أو الحرمان النّزعة الجاهلية التي أخبر الله عزّ وجلّ عنها بقوله : ﴿ وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ [النحل : ٥٧] ، أو ما كان نحو هذه النزعة .

أقوالُ العُلَماءِ في عَمْرَةَ :

* كان الأئمة والثقاتُ من العلماء يكثرون من ذِكْرِ عمرةَ ـ رحمها الله ـ ويلهجون بالثناء عليها ، وهم يعلمون علم اليقين أنهم لا يريدون عَرَضاً ، وليس لهم غرضٌ في ذلك إلا ابتغاء الحقيقة ، وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه ؛ من ذلك ما قاله الخليفة عمر بن عبد العزيز لأخيها محمد بن عبد الرحمن : ما بقي أحدٌ أعلم بحديث عائشةَ من عمرةَ .

أضف إلى ذلك أنَّ عمر بن عبد العزيز كان يسألها[1] ويستفتيها .

* وقد شهد لعمرة بالثقة في الرِّواية عالمان من ذوي الثقة والحجة وهما : يحيى بن معين[2] والعجليّ .

فقد قال يحيى بن معين : عمرةُ بنتُ عبد الرحمن ثقةٌ حجةٌ .

وقال العجليُّ : مَدَنيَّةٌ تابعيَّةٌ ثقةٌ .

* وأمّا عليُّ بن المديني ـ وهو أحد أئمة الإسلام المبرزين في الحديث ـ فكان إذا ذكر عمرة فخَّمَ أمرها وقال : عمرةُ أحد الثقات العلماء بعائشة الأثبات فيها .

وشهد لها سفيان بن عُيينة بالعلم فقال : كان أعلم النّاس بحديث عائشة ثلاثة : القاسم بن محمد بن أبي بكر الصّدّيق ، وعروة بن الزّبير ،

---

(١) المعرفة والتاريخ (٢/١٠٨) .

(٢) يحيى بن معين بن عون الغطفانيّ البغداديّ ، أبو زكريا ، ثقة ، حافظ مشهور ، إمام الجرح والتّعديل ، من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله الثقات . نعته الذّهبيّ : بسيّد =

وعمرة بنت عبد الرحمن [1].

* وقال ابن عيينة أيضاً : أتيت حديث عائشة حديث عمرة والقاسم وعروة .

* وذكرها ابن حبان في الثقات وقال عنها : كانت من أعلم الناس بحديث عائشة . ووصفها محمد بن شهاب الزهري بأنها بحر من العلم لا ينضب .

* وأما المؤرخون وكتاب التراجم ، فقد طاب لهم أن يثنوا على عمرة بما هي أهله .

* قال ابن سعد عنها : كانت عالمة . وهذه كلمة جامعة تشير إلى مكانة عمرة ـ رحمها الله ـ .

* وأثنى عليها الإمام الذهبي بقوله : كانت عالمةً ، فقيهةً ، حجةً ، كثيرةَ العِلْمِ ـ رحمها الله ـ .

* وقال عنها ابنُ العماد الحنبلي في « الشذرات » : الفقيهةُ الفاضلةُ عمرةُ بنتُ عبد الرحمن الأنصاريّة ، نشأت في حجْرِ عائشة ، فأكثرت الرِّوايةَ عنها ، وهي العَدْل الضَّابطة لما يُؤخذ عنها .

= الحفاظ . ومن كلام يحيى : كتبتُ بيدي ألف ألف حديث ـ مليون حديث ـ ، ولد بقرية « نقيا » قرب الأبيار سنة (١٥٨ هـ) ، وورث ثروة كبيرة عن والده أنفقها في طلب الحديث ، وله « التاريخ والعلل » و « معرفة الرجال » وغيرهما . توفي بالمدينة المنورة حاجاً سنة (٢٣٣ هـ) وصلى عليه أمير المدينة ـ رحمه الله ـ . (تقريب التهذيب : ٢/٣٥٨)، و (الأعلام : ٨/١٧٢ و ١٧٣) .

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/٣٣٢) و (٢/٥٥) .

ولله درّ مَنْ امتدح العلماء بقوله :

العــزُّ مخصــوصٌ بــه العــلمــاءُ
مــا للأنــامِ ســواهــمُ مــا شــاؤوا
إنَّ الأكابـرَ يحكــمــون على الورى
وعلى الأكابرِ يحكــمُ العــلمــاء[1]

* * *

تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَة :

* عاشت عمرة ـ رحمها الله ـ في المدينة المنورة ، تنيرُ النَّاس بما أفاء الله عليها من العلم إلى آخر حياتها ؛ وكانت ـ رحمها الله ـ على استعداد دائم للقاء الله عزَّ وجلَّ ، ولما اقتربتْ وفاتُها قالت لأخيها محمّد بن عبد الرحمن ، أو لبني أخ لها ـ وكان لهم بستان قرب البقيع ـ : أعطوني موضع قبري في حائط ، فإني سمعتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول : كسر عظم الميت ميتاً ككسره حياً .

* وفي يوم من أيام سنة ثمان وتسعين[2] من الهجرة ، توفيتْ عمرة بنت عبد الرحمن ، ودُفنت قرب البقيع بالمدينة المنورة .

* رحم الله عمرة ، ونضر قبرها ، وجعل قلوبنا عامرة بطاعته وذكره ، إنَّه سميع عليم .

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي (١/٥٢٨) .

(٢) وقيل توفيت سنة (١٠٦) . وذكر ابن الأثير في الكامل (٥/١٠٦) أنها توفيت سنة (١٠٣ هـ) رحمها الله .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

فاطمة بنت الحسين

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٢)

فاطمة بنت الحسين

• قال لها زوجها الحسن بن الحسن لما حضرته الوفاة :
إنك امرأة مرغوبٌ فيك .

• وقال عمر بن عبد العزيز :
عدم معرفتها بالشر جنّبها الشر .

فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ

كَرَمُ الأَصْلِ :

* فِي بيتٍ كريمٍ زكيّ طاهرٍ ، وعلى مائدة التُّقى والعلم كانت تربيتُها ونشأتُها .

* فأبوها : الحسين بن علي ، الإمام الشَّريف الكامل ، سِبْط رسول الله ﷺ ، وريحانته من الدّنيا ومحبوبه ، وفيه يقول كعب بن زهير[1] :

مسحَ النَّبيُّ جبينَهُ
فَلَهُ بياضٌ بالخدودْ
وبوجهِهِ دِيباجةٌ
كَرَمُ النُّبوةِ والخلودْ

* وأُمُّها : ابنة صحابي كريم ، أمّ كلثوم بنت طلحة بن عبيد الله .

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سُلمى المازني ، أبو المضرب : شاعر عالي الطبقة ، من أهل نجد . وكان ممّن اشتهر في الجاهلية ، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ ، فهدر النبي ﷺ دمه ، فجاءه كعب مستأمناً ، وقد أسلم ، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .....

فعفا عنه النبي ﷺ ، وخلع عليه بردته . وهو من أعرق الناس في الشعر . توفي سنة (٢٦ هـ) .

* وجدّتها لأبيها : سيّدة نساء العالمين في زمانها ، والبضعةُ النّبوية ، والجهة المصطفوية ، فاطمةُ الزّهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ .

* أمّا جدّاها لأبويها : فصحابيان كريمان مبشران بالجنّة .

فجدّها لأبيها : عليّ بن أبي طالب ، صهر النّبي ﷺ وابنُ عمه ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

وجدُّها لأمّها : طلحة بن عُبيد الله ، أحد نجباء الصّحابةِ ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنّةِ أيضاً .

* وعمُّها : الحسن بن علي ، الإمام السّيّد ، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه ، وسيّد شباب أهل الجنّة .

* في هذه البيئة الطّاهرة الفريدة ، كان مولد فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب القرشيّة الهاشميّة[1] ، إحدى سيّدات التّابعيّات الفاضلات .

* رأت فاطمةُ نورَ الحياة سنة (٤٠ هـ) ومنذ صغرها شبّت على حبّ العبادة ، ومجاورة التّقوى ، وأخْذِ العلم من أفواه الصّحابة والعلماء ، فجمعتْ بذلك بين النّسب الزّكيّ الطّاهر ، والعلم والفقه ورواية الحديث .

* * *

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٧٢) ، وتهذيب التهذيب (٤٤٢/١٢) ، وتقريب التهذيب (٦٠٩/٢) .

روايتُها للحديث :

* فاطمةُ ابنةُ الحسين إحدى راويات الحديث النَّبوي الشَّريف ، ومن النِّسوة التَّابعيات ممن أكثرن الرِّواية عن الصَّحابة والتَّابعين ، كما أنَّها ممن روي عنها الحديث بكثرة .

* ومن الصَّحابة الذين روتْ عنهم : سيِّدنا بلال روت عنه الحديث مرسلاً . وروت عن عبد الله بن عباس وعن أبيها الحسين رضي الله عنهم جميعاً .

* ومن الصَّحابيات اللاتي روتْ عنهن : جدَّتُها فاطمة الزَّهراء روت عنها الحديث مرسلاً . وروتْ عن عائشةَ أمِّ المؤمنين ، وعن أسماء بنت عُميس ، وعمَّتها زينب بنت علي رضي الله عنهن .

* أمَّا مَنْ روى عنها الحديث فهم كُثُر ، وجلُّهم من أكابر التَّابعين ، ومن العلماء العارفين ، روى عنها بنوها : عبد الله ، والحسن ، وإبراهيم ، بنو الحسن بن الحسن بن عليِّ بن أبي طالب .

كما روى عنها ابنُها الآخر محمَّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وشيبة بن نعامة ، ويعلى بن أبي يحيى ، وعمارة بن غزية[1] .

* وأمَّا مَنْ روى عنها من النِّساء : فعائشة بنت طلحة التَّيميَّة ، وأمُّ

---

(١) عمارةُ بن غزيَّة بن الحارث الأنصاريّ المازنيّ المدنيّ التابعيّ ، روى عن أنس بن مالك مرسلاً ، وروى عن والده وعن غيره ، وروى عنه جلّة العلماء والتابعين . وعمارةُ ثقةٌ صالحٌ صدوقٌ في روايته ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وذكره ابن حبان في الثقات في أتباع التابعين . توفي سنة (١٤٠ هـ) رحمه الله . (تهذيب التهذيب : ٧/٤٢٢ و ٤٢٣) ، و (تقريب التهذيب : ٢/٥١) .

أبي المقدام هشـــام بن زياد ، وأمّ الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسن .

* وروى لها من أصحـــاب السُّنن : أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه .

* وقد ذكرها ابن حِبّان في الثّقات .

* * *

أَحَادِيثُ رَوَتْهَا فَاطِمَةُ :

* مِنْ مرويات فاطمة بنت الحســين ما روى ابنها محمّدُ بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن أمه فاطمة بنت الحسين أنّها سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تديموا إلى المجذومين النظر »(١) .

* وروت الحديث نفسه عن أبيها الحسين : أنّ النّبيّ ﷺ قال : « لا تديموا النّظر إلى المجذمين ، وإذا كلمتموهم فليكن بينكم وبينهم قيْد رُمْح »(٢) .

* ومِنْ مراسيلها ما رواه ابنُها عبد الله بن الحسن عنها ، عن فاطمةَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٣) في الطّب ؛ باب : الجذام . ومسند أحمد (٢٣٣/١) . ورجل أجذم ومجذوم ومجذّم : إذا تهافتت أطرافه من داء الجذام . وإنما جاء النهي لأن مَنْ أدام النظر إليه حقّره ، ورأى لنفسه عليه فضلاً ، وتأذّى به المنظور إليه .

(٢) رواه أحمد في المسند (٧٨/١) .

بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال : « بسم الله ، والسّلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ، وافتح لي أبوابَ رحمتك » وإذا خرج قال : « بسم الله ، والسّلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبوابَ فضلك »[1] .

* ومن المراسيل عنها : أنَّ النّبي ﷺ قُبض وله بُردان في الحفّ يعملان[2] .

* * *

اخْتَرْ أحبَّهُمَا إليْكَ :

* أنعمَ الله عزّ وجلّ على فاطمةَ بنتِ الحسين بالجمال الباهر ، فكانت من أجمل النّساء ، وكساها أدباً ظاهراً ، وخلُقاً وعفّةً ، وكانت أختُها سُكينة بنت الحسين[3] شبيهتها في هذه الفضائل .

وكان الحسن بن الحسن الملقب بالمثنّى قد خطب إلى عمّه الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وسأله أنْ يزوّجه إحدى ابنتَيْهِ ، فقال له الحسين :

يا بن أخي ، قد انتظرتُ هذا منك ، انطلق معي ؛ فخرج به حتى أدخله داره ، ثم أخرج إليه بنتيه : فاطمة وسكينة ، فقال : اختَرْ يا بني

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٧٥) .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١/٥٩٠) و« الحفّ » : هي الخشبة التي يلف عليها الحائك ، وتسمى المطواة . والحفّ : المنسج .

(٣) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/١٩٠) : كانت فاطمة أكبر من سكينة . واقرأ سيرة سكينة بنت الحسين في هذا الكتاب .

أحبّهما إليكَ ؛ فاختار فاطمة فزوّجه إياها ـ وكانت تُشْبه جدتها فاطمة الزّهراء رضوان الله عليها ـ فكان يُقال : إنّ امرأةً مردودةٌ بها سكينة لمنقطعة القرين في الحُسْن والجمال[1] .

* وكانت فاطمة تُشَبَّه بالحور العِيْن لجمالها وحسنها ، وقد ولدت للحَسَن : عبد الله ، وحسن ، وإبراهيم ، وزينب ، وأمّ كلثوم ، بني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهذا أول زواج جمع بين أولاد الحسن والحسين رضي الله عنهما .

* وكان ابنها عبدُ الله بن الحسن شيخ بني هاشم والمقدّمُ فيهم ، وذا الكثير منهم فضلاً وعلماً وكرماً ، وقد وُلدَ في بيت فاطمة الزّهراء رضي الله عنها ، ولذلك كان عبد الله هذا يقول : أنا أقربُ النّاس من رسول الله ﷺ ، ولدتني بنتُ رسول الله ﷺ مرتين .

* وكان عبدُ الله بن الحسن يُشْبِهُ رسول الله ﷺ ، ومن المحاسن التي تُقال عن عبد الله بن فاطمة بنت الحسين ما قاله مصعب الزّبيريّ رحمه الله :

انتهى كلُّ حَسَن إلى عبد الله بن الحسن .

* وكان يقال : مَنْ أحسن النّاس ؟ فيُقال : عبد الله بن الحسن . ويقال : مَنْ أفضل النّاس ؟ فيُقال : عبد الله بن الحسن . ويُقال : مَنْ أقْوَل النّاس ؟ فيقال : عبد الله بن الحسن .

* وكان لفاطمة بنت الحسين كبير الفَضْل ، وعظيم الأثر في رعاية

(١) عن نسب قريش (ص ٥١) ، ومقاتل الطالبيين (ص ١٦٧) بتصرف يسير .

أولادها ، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة ، وتغذيتهم بالعلم والأدب ، فكانوا سادة العلماء ، وعلماء السّادة في عصرهم .

* وأقامت فاطمة مع زوجها بضْعَ سنوات سِمَانٍ ، إلّا أنَّ حياتها لم تدمْ معه طويلاً ، فقد وافاهُ الأجل المحتوم رحمه الله تعالى .

* * *

إنَّكِ امرأةٌ مرغُوبٌ فيكِ :

* لمّا حضرتِ الحسنَ بن الحسن الوفاة ، قال لفاطمة بنت الحسين : إنَّكِ امرأةٌ مرغوبٌ فيك ؛ فكأنّي بعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إذا خُرِجَ بجنازتي ، قد جاء على فرسٍ مُرَجَّلاً جمّته ، لابساً حلّته ، يسيرُ في جانب النّاس يتعرّض لك ، فانكحي مَنْ شئتِ سواه ، فإنّي لا أدعُ من الدُّنيا ورائي همّاً غيرك .

قالت : أنتَ آمِنٌ ذلك .

وأثلجته بالأيمان مِنَ العتق والصّدقة : لا تزوّجتُهُ .

ومات الحسنُ بن الحسن رحمه الله ، وخُرج بجنازته ، فوافاه عبد الله ابن عمرو بن عثمان على الحال التي وصف الحسن .

وكان يقال لعبد الله هذا : المُطْرف مِنْ حُسْنِه ، فنظر إلى فاطمةَ حاسرةً ـ مكشوفة الوجه ـ تبكي ، فأرسل إليها : إنَّ لنا في وجهك حاجة فارفقي به ، فتوقفت قليلاً ، وعُرِفَ ذلك فيها ، وخمّرت وجهها ؛ فلما حلّت ـ انقضتْ عدتها ـ أرسل إليها يخطبها ؛ فقالت :

كيف بيميني التي حلفتُ بها ؟ فأرسل إليها : لك مكان كلّ مملوكٍ مملوكان ، ومكان كلّ شيءٍ شيئان ، فعوّضها عن يمينها ، فنكحته ، وولدت له محمّداً ـ الدّيباج[1] ـ والقاسم ورُقيّة بني عبد الله بن عمرو ، فكان عبد الله بن الحسن بن الحسن ـ وهو أكبر ولدها ـ يقول : ما أبغضتُ بغْض عبد الله بن عمرو أحداً ، وما أحببتُ حبّ ابنه محمّدٍ أخي أحداً[2] .

* وقد ورد أنّ عبد الله بن عمرو بن عثمان قد أصْدَق فاطمة ألف ألف درهم ـ مليون ـ ولما زُفّتْ إليه عارضها موسى شهوات فقال :

طلحة الخير جدّكم ... وخير الفواطم
أنتِ للطّاهرات منْ ... فرعِ تيْم وهاشم
أرتجيكم لنفعكم ... ولدفع المظالم

فأمر له بكسوة ودنانير وطيْب .

* * *

مَكانَتُها ورفْعَةُ شأْنِها :

* احتلّتْ فاطمة بنت الحسين رحمها الله مكانة عظمى بين النّساء

(١) الدّيباج : سمي بذلك لجماله وحسنه ، ومحمّد هذا هو الذي قال جميل فيه : والله إني لأراه يخطرُ على الصّفا ، فأغار على بُثينة من أجله .

(٢) انظر نسب قريش (ص ٥١ و ٥٢) ، وتاريخ دمشق (ص ٢٧٩ و ٢٨٠) ، والعقد الفريد (٩١/٦) ، ونور الأبصار (ص ٢٠٥) وكان عبد الله بن الحسن هو الذي تولّى تزويج أمّه لعبد الله بن عمرو ، برّاً بها وطاعةً لها ؛ وقيل : إنّ فاطمة لمّا خطبها عبد الله بن عمرو أبتْ أنْ تتزوجه ، فحلفتْ أمّها عليها أن تتزوجه ، وقامت في الشمس وآلت ألا تبرح حتى تتزوجه ، فكرهت فاطمة أن تخرج أمها فتزوجته .

في عصر التّابعين ، وكان صوتها مسموعاً لدى الأمراء والخلفاء ، ومن أجلها ولمكانتها الكبيرة عزل يزيد بن عبد الملك والي المدينة المنوّرة .

* وسببُ ذلك أنَّ عبد الرّحمن بن الضّحاك بن قيس الفِهْري والي المدينة ، كان قد خطبَ فاطمة ابنة الحسين بعد وفاة زوجها عبد الله بن عمرو ، فقالت : والله ما أريدُ النّكاح ، وقد قعدتُ على بنيّ هؤلاء ؛ وجعلتْ تعاجزه وتكره أنْ تنابذَهُ لما تخاف منه .

وألحَّ عليها ، فلمّا استيأس منها قال لها متوعّداً : والله لئن لم تفعلي لأجلدن أكبرَ بَنِيكِ في الخمر ! ــ يعني ابنها عبد الله بن الحسن ــ .

فكتبتْ فاطمة كتاباً ، وبعثته إلى يزيد بن عبد الملك بدمشق تخبره ، وتذكر قرابتها ورحمها ، وتذكر ما ينالُ ابن الضّحاك منها ، وما يتوعدها به .

فلما قرأ يزيد كتابها ، غضبَ غضباً شديداً ، وجعل يضربُ بخيزران في يديه ويقول : لقد اجترأ ابنُ الضّحاك ! مَنْ رجل يسمعني صوته في العذاب وأنا على فراشي ؟ فقيل له : عبد الواحد بن عبد الله النّصري ، فدعا بقرطاس وكتب بيده إلى عبد الله ــ وهو يومئذ بالطّائف ــ : سلامٌ عليك ، أما بعد : فإنّي قد ولّيتُك المدينة ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فاهبطْ واعزل عنها ابن الضّحاك ، وأغرمه أربعين ألف دينار ، وعذّبْهُ حتى أسمعَ صوته وأنا على فراشي .

وبلغ ابنُ الضحاك الخبر ، فأوجس خيفة في نفسه ، وهرب إلى الشّام ، ولاذ بمسلمةَ بن عبد الملك ، فاستوهبه من يزيد فلمْ يفعلْ وقال : قد صنعَ ما صنعَ بفاطمةَ بنتِ الحسين ، واجترأ وتطاول ، والله لا

أعفيه أبداً ، فردَّه إلى المدينة إلى عبد الواحد النَّضري ، فأغرمه أربعين ألف دينار وعذبه ، وطاف به في جُبَّةٍ من صوف[1] .

* قال ابنُ الأثير في « الكامل » : وكان ابنُ الضَّحاك قد آذى الأنصار طرّاً ، فهجاه الشُّعراء ، وذمَّه الصَّالحون . ولما وليهم النَّضْريُّ ، أحسن السِّيرة فأحبّوه ، وكان خيّراً ، يستشير فيما يريد فعله القاسم بن محمّد ، وسالم بن عبد الله بن عمر[2] .

* * *

كَرَامَتُهَا :

* لفاطمةَ ابنة الحسين كرامةٌ كبيرةٌ ، ومكانة متميّزةٌ في نفوس معاصريها على اختلاف طبقاتهم ، وكانت كرامتُها امتداداً لكرامة جدّتها فاطمة الزَّهراء رضوان الله عليها ، فقد أورد ابنُ عساكر خبراً يشير إلى هذا فقال :

---

(١) عن الطبقات (٤٧٤/٨) ، وتاريخ الطبري (١٠٤/٤ و ١٠٥) ، والكامل في التاريخ (١١٣/٥) والسمط الثمين (ص ١٩٥ و ١٩٦) بشيء من التصرف .

(٢) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أحد مَنْ جَمَعَ بين العلم والزّهد والشّرف ، وكان أبوه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما معجباً به ، وكان يقول :

يلومونني في سالم وألومهم ... وجلدة بين العين والأنف سالمُ

وكان سالم على سَمْتِ أبيه وعلى رفاهيته . وقيل : دخل في ثياب رقّة غليظة على سليمان بن عبد الملك فأجلسه معه على سرير الخلافة . وقد عدّه بعضهم من الفقهاء السّبعة . وقد كان النضري يدني أمثال سالم فازدادت منزلته عند الناس .

خطبَ الحسنُ بنُ الحسن إلى المسوّر بن مخرمة[1] ابنته ، وكانت تحته فاطمة ابنة الحسين ، قال : يا بن رسول الله ﷺ : لو خطبت إليَّ على بِشْعٍ تعلك لزوّجتك ؛ ولكنْ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنّما فاطمةُ شُجْنةٌ ـ بضعةٌ ـ مني يرضيني ما أرضاها ويسخطني ما أسخطها » ، فأنا أعلم أنّها لو كانت حيّة فتزوجتَ على ابنتها لأسخطها ذلك ، فما كنتُ لأسخط رسول الله ﷺ[2] .

* * *

فَاطِمَةُ وَالشِّعْرُ :

* لعلّ نشأة فاطمة في بيئةٍ علمية وأدبيّة ، جعلها تقول الشِّعر أو تتمثل به في المواقفِ التي تحرّكُ المشاعر ، من ذلك أنّها نظرتْ إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن ، فغطّتْ وجهها وقالت :

وكانــوا رجــاء ثم أمْسَــوْا رزيّــةً
لقــد عظُمتْ تلك الرَّزايا وجلّتِ

* ويبدو أنَّ فاطمةَ كانت تمتلكُ إحســاســاً غريباً يجعلها تشعر

---

(١) هو المِسْوَر به مَخْرَمة القرشي الزهري ، أبو عبد الرحمن : من فضلاء الصحابة وفقهائهم . أدرك النبي ﷺ وهو صغير وسمع منه . وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف ، ليالي الشورى ، وحفظ عنه أشياء . وروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من أكابر الصحابة . وشهد فتح إفريقية مع عبد الله بن سعد . وهو الذي حرّض عثمان على غزوها . ثم كان مع ابن الزبير ، فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في الحصار بمكة فقُتل سنة (٦٤ هـ) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٢٨٣) .

بالحديثِ ولو طالت المسافات ، فلما قُتل والدها رضي الله عنه جاء غرابٌ فوقف على جدار فاطمة ونَعَبَ ، فرفعتْ رأسها إليه فنظرتْ إليه ، فبكتْ بكاء شديداً وأنشأت تقول :

نعبَ الغـــرابُ فقـــلتُ مَنْ
تنـــعـــاه ويـــلكَ يـــا غـــراب
قـــال الإمـــام فقـــلتُ مَنْ
قـــال المـــوفّقُ للصّـــواب
قـــلتُ الحســـين فقـــال لي
حقـــاً لقـــد سـكـنَ التُّـراب
إنَّ الحســـنَ بكـــربـــلا
بـــين الأســـنّـــةِ والضّـــراب[1]

* * *

جُرْأتُها :

* كانت فاطمةُ ـ رحمها الله ـ ذات قلب جريء ، لا تقهرها المواقفُ منْ قول الحقّ أمام أيّ مخلوق . فقد جاء هذا عندما قُتل أبوها ، وحَمَلَ أهل الشّام بنات آل رسول الله ﷺ وفيهم فاطمة وأختها سُكينة وعمتها أمّ كلثوم[2] بنتُ عليّ ، وزينب العقيلية ، فأُدْخِلْن على يزيد بن معاوية ، فقالت فاطمة : يا يزيد ، أبنات رسول الله ﷺ سبايا ؟! قال :

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٨٦) ، ونور الأبصار (ص ٢٠٦) ، وبعض العلماء لا يثبت هذا الشعر لفاطمة .

(٢) اقرأ سيرة أم كلثوم بنت علي في هذا الكتاب ففيه أخبار وسنة .

بل حرائرُ كرام ؛ ادخلي على بنات عمّك .

فدخلتْ على أهل بيته ، فما وجدت فيهن سفيانية إلا نادبة تبكي[1] ، ثم خرجت بعد ذلك إلى المدينة المنورة فأقامت فيها .

* * *

أخلاقُها ودُرَرٌ من أقْوالها :

* إنَّ أخلاق فاطمة بنت الحسين كما رسمها الأولون ومَنْ عرفها وخالطها ، لدليل على أنّها في الذّروة العليا في الحياء والعبادة ، فبالإضافة إلى أنّها تُمْسِكُ بالمجد من أطرافه ، طرف الأب والأم ، والجدّ والجدّة ، كانت من أرفع النّساء حياءً وبُعْداً عن زخارف الدُّنيا ، وقد شهد لها بهذا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فقد روى ابن عساكر في تاريخه أنَّ فاطمةَ بنتَ الحسين دخلت مع قواعد قومها على هشام قادمة من المدينة المنورة ، فقال للأبرش الكلبي ـ واسمه سعيد بن الوليد ـ : كان عندي البارحة قواعد قومي ، فما كان فيهم أخفرَ ولا أحيا من فاطمةَ بنتِ الحسين .

* ومن الأخلاق الفاضلة التي فُطِرتْ عليها فاطمة ، أنّها كانت بعيدة عن طريق الشّر ، محبّةً للخير وأهله ، تحرصُ على فعل الخيرات وتعطي عليها ، وقد توّجتْ أخلاقها العظيمة بفضيلة الكرم والإحسان إلى النّاس .

---

(١) الكامل (٤/٨٦) ، والأعلام (٥/١٣٠) .

* روى الإخباريون أنّ الكُميت بن زيد الأسدي[1] دخل عليها فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت ؛ وجاءت بقدح فيه سُوَيق فحرّكته بيدها ، وسقتِ الكميت فشربه ، ثم أمرتْ له بثلاثين ديناراً أو مركب ، فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبلها ، إنّي لم أحبّكم للدّنيا .

* ولفاطمة رحمها الله تعالى أقوالٌ نفيسةٌ تدلُّ على وفرة عقلها ، وحسن خبرتها ، وكمال مروءتها ، وخوفها من الله عزّ وجلّ . ومن بدائع أقوالها التي وعتها كتب المصادر ، أنّها جمعت أولادها وقالت لهم : يا بنيّ ، إنّه واللهِ ما نال أحدٌ من أهل السّفه بسفههم ، ولا أدركوا ما أدركوه من لذّاتهم إلا وقد أدركه أهل المروءات بمروءاتهم ، فاستتروا بجميل سترِ الله عزّ وجلّ .

* * *

مع عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيْز :

* كانت فاطمةُ بنتُ الحسين رحمها الله في غاية الفَضْل والدِّين والذِّكر والتّسبيح الدّائم لله سبحانه ، لم تُؤْثر عنها كلمة واحدة في غير موضعها ، وكانت طاهرة النّفس ، نقيّة القَلْب ، سليمة الصّدر لا تحمل فيه بغضاً ولا كراهية ، ولم يوغر صدرها في يومٍ من الأيام على مخلوق ، بل إنّها كانت لا تعرفُ معنى الشّر ، ولهذا فقد عظمتْ في أعيُنِ النّاس ، وخصوصاً عند عمر بن عبد العزيز ، وكان لها معظّماً ، يعرفُ

(١) هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي ، أبو المستهلّ : شاعر الهاشميين من أهل الكوفة . اشتهر في العصر الأموي . وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها ، ثقة في علمه ، منحازاً إلى بني هاشم ، كثير المدح لهم . وكان فارساً شجاعاً ، سخياً ، رامياً فلم يكن في قومه أرمى منه . توفي سنة (١٢٦ هـ) .

قَدْرها وصلاحَها ، فذُكرت فاطمة يوماً عنده فقيل : إنَّها لا تعرف الشَّر ! فقال عمر رحمه الله : عدم معرفتها بالشَّر جنَّبها الشَّر .

• وكان عمر بن عبد العزيز ـ وناهيك به ـ يُكرِمُ مَنْ كان له قرابة أو رَحِمٌ لآل بيت النَّبي ﷺ ، ويصِلَهُم بما أفاء الله عليه مِنْ غنائم وأموال ، وكانت فاطمة رحمها الله تُكْبِر عَمَل عمر ورعايته لآل البيت ، فكتبتْ إليه تشكر له ما صنع : « بسم الله الرحمن الرحيم :
لعبد اللهِ عمر أمير المؤمنين ، من فاطمةَ بنتِ الحسين ، سلامٌ عليك ، فإنّي أَحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فأصلحَ الله أمير المؤمنين أعانه على ما ولّاه وعَصَم له دينه ، .. .. .. يا أمير المؤمنين لقد اختدم مِنْ آل رسول الله ﷺ مَنْ كان لا خادم له ، واكتسى مَنْ كان عارياً ، واستنفقَ مَنْ كان لا يجدُ ما يستنفق » .

* وقرأ عمر بن عبد العزيز كتابها ، فحمد الله وشكره ، وسُرَّ بذلك ، وبعث إلى فاطمةَ بخمسمئة دينار وقال : استعيني بها على ما يَعْروك ، وكتب إليها بكتاب يذكر فضلها وفضل أهل البيت ، ويذكر ما أوجب الله لهم من الحق .

* ولما توفي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، حزنت عليه فاطمة بنت الحسين حزناً شديداً ، وذكرت محاسنه ، وعدّدتْ فضائله ، فقد ذكر ابن الأثير في « الكامل » والسُّيوطي في « تاريخ الخلفاء » فقالا : قال جويرية : دخلنا على فاطمةَ بنتِ الحسين بن علي بن أبي طالب ، فأثنتْ على عمرَ بن عبد العزيز وقالت : لو كان بقي لنا ما احتجنا إلى أحد .

* وظلّت فاطمة مرعيةَ الجانب إلى أنْ لبّتْ نداءَ ربِّها في سنة

(١١٠ هـ) ، ودُفنت في المدينة المنورة .

* هذه فاطمة ابنة الحسين إحدى النِّسوة القُدْوة ، ممن آثرن النَّعيم المقيم ؛ على المتاع الزَّائل ، فحقَّ لها الخلود .

* وما أجمل أنْ ندعو الله عزَّ وجلَّ بمثل ما كانت تدعو به فاطمة : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ؛ اللهم افتح لنا أبواب فضلك .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

خنصة بلت سيرين

www.dawaFmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٨)

حفصة بنت سيرين

* قال إياس بن معاوية :

ما أدركت أحداً أفضله على حفصة .

* وقال يحيى بن معين :

حفصة بنت سيرين ثقة حُجّة .

حَفْصَةُ بِنْتُ سِيْرِينَ

الميراثُ الحقيقيُّ :

* ورثتْ هذه المرأة عن أسرتها حبَّ العلم ، والدَّأب في القراءة ، فقد نشأت في بيت تقىً وعلم ، وورع وزهد ، وتخرّجت في مدرسة الصَّحابة ، تلك المدرسة التي أثرت الدّنيا بأعلام حلّقوا في سماء المكرمات ، وزيّنوا جِيْدَ الدّهر بعلومهم ، وأسسوا الحضارة العلمية بأعمالهم التي ما تزال حيّة تخفقُ بيننا حتى الآن .

* وقد شهد لهذه التّابعية بالفضل ، أهل الفضل وأولو المعرفة ، وأثنوا عليها ثناءً عَطِراً حقيقياً ، رفعها مكاناً علياً بين نسوة عصرها ، وأبانَ فضلها ، وكشف عن مكانتها الكبيرة في العلم ، فهذا إياس بن معاوية التّابعي المشهور يقول عنها : ما أدركت أحداً أفضلَ عليها ـ يعني من

---

(١) إياسُ بنُ معاوية بن قرة المزنيّ ، أبو واثلة ، البصريّ ، القاضي المشهور ، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء ، ولد سنة (٤٦ هـ) وممّا قاله عنه الجاحظ : كان إياس صادق الحدس ، عجيب الفراسة ، ملهماً ، وجيهاً عند الخلفاء ، توفي سنة (١٢٢ هـ) ، وله أخبار مشهورة ، وكان مضرب المثل في الذكاء ـ رحمه الله تعالى ـ ، (تقريب التهذيب : ٨٧/١) ، و (الأعلام : ٣٣٠/٢) .

التَّابعين ـ وحسبك بشهادة إياس لها ، لتجعلها بذلك سيّدة التّابعيات في زمانها دون منازع .

* ولم يكن في عصرها مَنْ يستطيع أنْ يجاريها في الفقْهِ أو العلم ، حتى أضحتْ علماً يشار إليها بالبنان ، إنّها حفصةُ بنتُ سيرين الفقيهة الأنصـــاريّة البصريّة ، أمّ الهذيل[1] ، أخت التّابعي الشّهير محمّد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ .

* * *

بِدَايَةٌ مُوَفَّقَةٌ :

* قبل أنْ ندخلَ الأجواءَ العطرةَ لحفصةَ بنتِ سيرين ، تعالوا نقف وقفةً لطيفةً نتعرف خلالها على تلك البدايةِ الكريمة التي أحاطت بها .

* كان أبوها سيرين مولىً لسيدنا أنس بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ ـــ وقد اشتراهُ مِنْ سيدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وكان قد أسره في « عين التّمر » في باديةِ العراق قرب الأنبار ، إلا أنّ أنَساً ـ رضي الله عنه ـ كاتَبَ سيرين على شيءٍ من المال ، فأدّى كتابته وأصبح حراً .

* ثم ما لبثَ سيرين أنْ تزوّجَ من امرأةٍ يقال لها « صفيّة » كانت مولاةً لسيدنا أبي بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ ، وكانت امرأة فاضلة

---

(١) الطبقـات (٤٨٤/٨) ، وسـير أعلام النبلاء (٥٠٧/٤) ، وتهذيب التهذيب (٥٠٩/١٢) .

ميمونة ، فقد أكرمها الله عزَّ وجلَّ بكرامةٍ نادرة إذ طيّبها ثلاثة من أزواج النَّبيِّ ﷺ ، فدعَوْنَ لها ، وحضر إملاكها ثمانية عشر بدرياً فيهم سيدنا أبيُّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يدعو وهم يؤمّنون[1] .

* وقد حدَّثتْ حفصة أنَّ والدها سيرين عَرسَ بالمدينة فأدَمَ ، فدعا النَّاس سبعاً ، وكان فيمن دعا أُبيّ بن كعب ، فجاء وهو صائم فدعا لهم بخير وانصرف[2] .

* وقد أثمر هذا الزَّواج الميمون ثماراً طيّبة عندما رُزق هذان الزَّوجان حفصة[3] ، ومن وراءِ حفصةَ محمّد ويحيى وكَريمة وأمّ سُليم ، ويبدو أنَّ سيرين قد تزوّج بغير صفيّة أيضاً فوُلدَ له عدة أولاد وهم : مَعْبد وأنس وعَمْرة وسودة بنو سيرين ، وكلّهم ـ كما قال ابن كثير ـ : تابعيّون ثقات أجلاّء[4] . وقال الإمام النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ عنهم : وأولاد سيرين كلُّهم رواة ثقات .

* هذا وقد نشأتْ حفصة في هذا البيت الفاضل ، ويكفيها من الفخر أن يكون مولى أسرتها كلّها الصَّحابي الجليل أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، فقد صُنعت على عينه ، وتخرّجت في مدارس عدد من أجلاّء الصَّحابة والصَّحابيات ، وفي مقدمتهم : عائشةُ أمُّ المؤمنين ، وأمُّ عطيّة الأنصارية ـ رضي الله عنهما ـ .

---

(١) الطبقات (١٩٣/٧) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٨٣/١) .

(٢) المعرفة والتاريخ (٢٧/٣) .

(٣) كان مولد حفصة في خلافة سيدنا عثمان حوالي سنة (٣١ هـ) .

(٤) البداية والنهاية (٢٧٩/٩) .

* كما تابعت حفصة تحصيلها العلمي الحديثيّ في مدرسة التّابعين ، فروتْ عن أخيها يحيى ، وعن أبي العالية رفيع بن مهران البصريّ ، وهو إمام مقرئ حافظ مُفسّر ، وأحد أعلام التّابعين وفضلائهم وأكابرهم .

* ولم تقتصر حفصة في روايتها على أعلام التابعين من الرّجال فحسب ، بل روت عن خَيْرَة أم الحسن البصريّ[1] ـ رحمها الله .

وروى عن حفصةَ عددٌ من أفاضل التّابعينَ ، وجِلّةِ العلماء منهم : أخوها محمّد بن سيرين ، وقتادةَ ، وأيّوب ، وابن عون ، وهشام بن حسان وغيرهم كثير .

* وحديثها مذكورٌ في الصّحاح والسُّنن والمسانيد ، ومن مروياتها الحديث المشهور في غَسْلِ الميّت الذي روته عن أمّ عطية الأنصارية[2] ـ رضي الله عنها ـ قالت :

لما ماتتْ زينب بنت رسول الله ﷺ قال : « اغسلنها وتراً ، ثلاثاً ، أو خمساً ؛ واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور ، فإذا غَسَلْتُنَّها فأعلمنني » فلما غسلناها أعطانا حقوه ـ إزاره ـ وقال : « أشْعِرْنَها إيّاه[3] » .

* * *

(١) اقرأ سيرة خَيرة أمّ الحسن البصريّ في هذا الكتاب ؛ ففيه أخبار سارّة .

(٢) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة أم عطيّة الأنصارية في كتابنا « نساء من عصر النبوة » الجزء الأول .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطّبقات (٨/٣٤) ، ومسلم (٩٣٩) ، والحديث أصل في صحيح البخاريّ برقم (١٦٧) و (١٢٥٥) و (١٢٥٦) و (١٢٦٣) ، والترمذي (٩٩٠) ، وكلّه من طريق حفصة بنت سيرين ـ رحمها الله ـ . =

اسألوا حفصة :

* كان محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ إذا أشكل عليه شيءٌ من القرآن قال : اذهبوا فسلوا حفصةَ كيف تقرأ .

* هذه شهادة راكيةٌ تشهد لحفصة بعلو الكعب في معرفة علوم القرآن ، وتشهد لها أيضاً بجودة فهم وحفظ كتاب الله عزّ وجلّ ؛ وليس غريباً أنْ يذهب النّاس لسؤال حفصةَ عمّا يصادفهم منْ مسائلَ ، فقد قرأتِ القرآنَ وهي ابنة اثنتي عشرة سنة ، وعاشت في رحابه آناء الليل وأطراف النّهار ، وتفيأت بظلاله في الغدو والآصال .

* وكانت ـ رحمها الله ـ موصولة القلب بالله عزّ وجلّ دائماً ، وكان وِرْدُها القرآن ، إذْ لم يكن يتبيّنُ الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر في كلّ ليلة ، إلا وقد قرأتْ نصف القرآن الكريم ، ولم تترك هذا المورد المبارك إلى آخر حياتها .

* أمّا فهمها لآياتِ الذّكْرِ الحكيم ، فكان شيئاً رائعاً يدلُّ على مدى سعة علمها وفقهها ، وقد أوردَ ابنُ الجوزيّ في « صفة الصّفوة » أنّ

= والحديث هذا مرويٌّ في الصّحاح والسّنن كلّها .
ومن الفائدة هنا أنْ نشير إلى ما ورد في الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال : « اغسلنها وتراً : ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً ، أو أكثر من ذلك إن رأيتن » .
قال ابن المنذر : إنّما فوّض الرأي إلى الأمّ بالشّرط المذكور وهو الإيثار ، وإذا كان الميت امرأة تندب نقض شعرها وغسل ، وأُعيد تضفيره وأرسل خلفها ، ففي حديث أم عطيّة : أنهن جعلن رأس ابنة النّبي ﷺ ثلاثة قرون ضفائر ـ نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون . وفي صحيح مسلم قالت : فضفرنا شعرها ثلاثة قرون : قرنها وناصيتها . وفي صحيح ابن حبان الأمر بتضفيرها من قوله ﷺ : « واجعلن لها ثلاثة قرون » .

عاصمَ الأصول[1] قال :

كنّا ندخل على حفصةَ بنتِ سيرين ، وقد جَعَلَتِ الجلباب هكذا ، وتنقّبت به ، فنقول لها : رحمك الله ، قال الله : ﴿ والقواعدُ من النِّساء اللاتي لا يرجونَ نكاحاً فليس عليهن أنْ يضعْنَ ثيابهن غير متبرّجات بزينة ... ﴾ [النور : ٦٠] ـ وهو الجلباب ـ قال عاصم : فكانت تقول لنا : أيَّ شيء بعد ذلك ؟ فنقول : ﴿ وأنْ يستعففن خيرٌ لهن ﴾ ثم تقول : إثبات الجلباب[2] .

* * *

عِبادَتُها وصَلاتُها :

* كانت حفصة ـ رحمها الله ـ من سروات النِّساء عبادة ودِيْناً وعفّةً وكرماً وطيباً ، وكان لها خلوات تقيمُ فيها الليالي الكثيرة للتعبد ، ولذا فقد كان لها في مجال العبادة حظٌّ عظيمٌ وبلغتْ مبلغاً رائعاً لم يبلغه إلا كبار الزُّهاد في عصرها .

---

(١) هو عاصم بن سليمان الأحول البصري ، أبو عبد الرحمن : من حفاظ الحديث ، ثقة ، تولى بعض الأعمال ، فكان بالكوفة على الحسبة ، وكان قاصباً بالمدائن ، واشتهر بالزهد والعبادة .

(٢) « الجلباب » : قيل هو المِلحفة ؛ قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً :

تمشي النُّسور إليه وهي لاهية ... مشي العذارى عليهن الجلابيب

وورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، وذكر ابنُ عبد البرّ في « الاستيعاب » أنَّ فاطمة بنت الوليد كانت تلبس الجلباب من الخزّ ثم تأتزر ، فقيل لها : أما يعنيك ـ أيّ الجلباب ـ عن الإزار ؟ فقالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يأمر بالإزار .

* قال عنها مهديُّ بن ميمون : مكثتْ حفصةُ بنت سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مصلاّها إلا لقائلة ـ أو مقابلة ـ أو قضاء حاجة[1].

* وأورد هشامُ بن حسان صورةً وضيئةً عن عبادتها فقال : كانت تدخل إلى مسجدها فتصلي فيه الظّهر والعصر والمغرب والعشاء والصّبح ؛ ثم لا تزال فيه حتى يرتفع النّهار ، وتركع ثم تخرج فيكون عند ذلك وضوؤها ونومها ، حتى إذا حضرت الصّلاةُ عادت إلى مسجدها إلى مثلها[2].

* ولم تتوقفْ ـ رحمها الله ـ في عبادتها عند هذا الحدّ فحسب ، بل كانت تطيلُ الوقوف في صلاتها تذرفُ الدّمع سخياً من خشية الله عزّ وجلّ ، وهذا مما لفتَ انتباه جاريةٍ لها سِنْديّةٍ قد اشترتها ، فقيل للجارية : كيف رأيتِ مولاتك حفصة ؟ قالتِ الجاريةُ : إنّها امرأةٌ صالحةٌ ، كأنّها أذنبتْ ذنباً عظيماً ، فهي تبكي الليل كلّه وتصلي.

* ولهذا فقد كانت حفصـة ـ رحمها الله ـ تحضُّ على طاعة الله سبحانه في مرحلة الشّباب ، لأنّ في الشّباب قوة على الطّاعة ، وكثيراً ما كانت تخاطب الشّباب ـ من إناث وذكور ـ بقولها المأثور :

يا معشر الشّباب ، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب ، فإنّي رأيتُ العملَ في الشّباب.

* وإلى جانب عبادة حفصةَ وصلاتها وصلاحها ، كانت واحدة من

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٧).
(٢) صفة الصّفوة (٤/٢١).

سردن الصّوم ، ومنذ أنْ عَقَلَتْ لم تفطر يوماً واحداً ، إلا العيدين وأيام التّشريق ـ وهي الأيام التي يحرم صومها ـ ومما يدلُّ على صومها الدّهر ما وردَ من أنَّ ابنها الهذيل كان له ناقة حلوب ، وكان يبعث لها بحلْبةٍ بالغداة فتقول له : يا بنيّ إنّك لتعلم أنّي لا أشربه ، أنا صائمة . فيقول : يا أماه ، إنَّ أطيبَ اللبن ما بات في ضروع الإبل ، اسقيه مَنْ شئتِ .

ولكنَّ حفصةَ تؤثر بذلك مرضاة الله عزَّ وجلَّ فتبعث باللبن إلى الفقراء .

* * *

حَفْصَةُ في مِيزانِ العُلَماءِ :

* لقيتْ حفصة بنت سيرين المكانة التي تستحقُّ عند كبار علماء الحديث وعند كبار التّابعين وكبار المؤرخين ، قال عنها إمامُ الحديث في زمانه يحيى بن معين ـ رحمه الله ـ : حفصةُ بنت سيرين ثقة حجّةٌ .

وقال أحمدُ بن عبد الله : هي ثقةٌ . وذكرها ابن حبّان في الثّقات .

* وروي عن إياس بن معاوية قوله :

ما أدركتُ أحداً أفضّله على حفصة ؛ فذكروا له الحسن البصريّ وابنَ سيرين فقال : أمّا أنا فلا أفضّلُ عليها أحداً .

* ومما يتوافق مع رأي إياس ما رآه هشام بن حسان فقال :

قد رأيتُ الحسنَ وابنَ سيرين ، وما رأيتُ أحداً أرى أنّه أعقل منْ حفصةَ .

* أمّا عن مكانةِ حفصة في عالم النِّساء التّابعيات ، فيفسره لنا قول ابن أبي داود : بأنّ سيّدات التّابعيات هن : حفصةُ بنت سيرين ، وعمرةُ بنت عبد الرحمن ، ويليها أمُّ الدّرداء الصُّغرى .

* وحَسْبُ حفصةَ من الفخر بأنّها تلميذة نجيبة لعائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها . ولا شك في أنّ حفصةَ بنت سيرين قد اقتبست كثيراً من أخلاق ومعارف أمّنا عائشةَ حتى بلغت هذه المنزلة الكبرى في عالم النِّساء .

* * *

حَفْصَةُ وابْنُهَا الهُذَيْل :

* كان الهذيل ابن حفصة براً بوالدته أشدَّ البر ، فكان يعملُ على راحتها ، وكلّ ما يدخل الرِّضا والسُّرور إلى نفسها ؛ ولحفصةَ وابنها الهذيل أخبار رائعة تشير إلى حُسْن تربيتها له وإلى برّه بها ، من ذلك ما حكاه هشام بن حسان قال :

كان الهذيلُ بن حفصة يجمعُ الحطب في الصَّيف فيَقْشُرُه ، ويأخذ القصب فيَفْلِقه ؛ وكانت حفصة تشعر بوطأةِ البرد إذا جاء الشّتاء ، فكان ابنها يأتي بالكانون فيضعه خلفها وهي في مُصلاّها ، ثم يقعدُ فيوقد بذلك الحطب المقشّر وذلك القصب المفلّق وقوداً لا يؤذي دخانه ، حتى تشعر أمّه بالدّفء ، ويظلّ يفعل ذلك ما شاء الله براً بها واعترافاً بفضلها .

* إلا أنّ المنية وافتِ الهذيل ، وألهمها الله عزّ وجلّ السّلوان ، وقد

وصفت ذلك فقالت :

لما مات ـ ابني الهذيل ـ رزق الله عليه من الصَّبر ما شاء أنْ يرزق ، غير أني كنتُ أجدُ غصّـةً لا تذهب ، وبينا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النَّحل ، إذ أتيتُ على هذه الآية : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنَّ ما عند الله هو خير لكم إنْ كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٥ ، ٩٦] قالت : فأعدتُها فأذهبَ الله ما كنتُ أجدُ من مرارة فقده .

* * *

استعدادها للموت :

* لئن بلغتْ حفصـــة الذّروة في مقـام العبادة والزّهد والنّسك والصّلاح ، لقد ضربتْ أروعَ الأمثلة في الاستعداد الدّائم للقاء الله عزّ وجلّ ، فقد ذكر الذين عرفوا أمورها وأحوالها أنّه كان كَفَنٌ قد أعدّته للموتِ ، فإذا حجّتْ وأحرمتْ لبسته لتذكّرَ نفسها أنّها تودُّ لقاءَ الله عزّ وجلّ في بيته المحرّم ، كما كانت تودُّ أنْ تذكّرَ مَنْ حولها أنّ الموت أقربُ للإنسان من حبل الوريد ، فليغتنمِ المرءُ هذه السّاعات المباركات في بيت الله الحرام .

* وإذا فرغتْ حفصة من حجّها أو عمرتها ورجعتْ ؛ وضعتْ ذلك الكفن بالقربِ منها ، فإذا كانت العشر الأواخر من رمضانَ ، قامت من الليل فلبستْ ذلك الكفن ، ووقفت بين يدي الله عزّ وجلّ تتضرّعُ إليه بين الخشية والرّجاء ، وتدعوه خوفاً وطمعاً أنْ يتقبّلَ منها أعمالها .

* ولم يكن ذكرُ الموت يفارقها طرفة عين ولا أقلّ من ذلك ، بل كانت تودُّ لو تموتُ شهيدة بالطّاعون ، فقد أخرج ابن سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن حفصةَ قالت : سألني أنس بن مالك بأيّ شيء تحبّين أنْ تموتي ؟ .

قلتُ : بالطاعون .

قال : فإنه شهادة لكلّ مسلم[1] .

* وهذا يدلُّ على فِقْه حفصةَ ، فإنّ الوفاةَ بالطّاعون مكرمة يختصُّ بها اللهُ مَنْ يشاء من عباده ، وقد روتْ أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما يشبه هذا فقالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن الطّاعون فأخبرني « أنّه عذابٌ يبعثه الله على مَنْ يشاء من عباده ، وأنّ الله جَعَلَهُ رحمةً للمؤمنين[2] » .

---

(١) الطبقات (٤٨٤/٨) وروى الشّيخان عن أنس مرفوعاً : « الطّاعون شهادة لكلّ مسلم » . و « الطّاعون » : هو الموت من الوباء . وتُعتبر الشّهادة منوعة مخصوصة من الله عزّ وجلّ ، وكرامة زائدة ، لأنّ الشهادة تكفيرٌ للسيئات غير التّبعات ، فإنْ لم يكن للشّهيد أعمال صالحة فأمره متروك للمشيئة الإلهية . ويُعتبر المطعون ـ المصاب بالطّاعون ـ شهيداً بقيود :

١ ـ أنْ يمكث في بلده الذي هو فيه لا يخرج منه .

٢ ـ وأنْ يعلم ـ علم اليقين ـ أنّه لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

٣ ـ وأنْ يصبر ـ صبراً جميلاً ـ دون انزعاج أو قلق .

قال رسول الله ﷺ : « ليس من عَبْدٍ يقع الطّاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنّه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له إلا كان له مثل أجر الشّهيد » رواه البخاري (٥٧٣٤) في الطّب ، باب : أجر الصّابر على الطّاعون .

(٢) البخاري (١٩٢/١٠) في الطب ، وأحمد في المسند (٦٤/٦) .

* وعاشت حفصة قرابة سبعينَ سنة ، كانت فيها مثالاً حقيقياً للمرأة المسلمة في ورعها ودينها وصلاحها وتُقاها ، حتى أورثتِ الصَّالحين صلاحها ، وخلّدتْها الأيام مع التّابعيات اللاتي أمْتَعْن أسماع التّاريخ وبَهَرْنَ بصره .

* وفي سنة (١٠١ هـ)[1] اختار الله عزَّ وجلَّ إلى جواره الكريم سيّدة النّساء التّابعيات حفصة بنت سيرين ، وحضر جنازتها جَمْعٌ كريم من سادة تابعي البصرة ، وفي مقدمتهم الحسن البصريّ وأخوها محمّد بن سيرين[2] .

* رحم الله حفصة وآل سيرين ، وجعلهم في عليّين .

* * *

(١) تهذيب التهذيب (١٢/ ٤١٠) ، وقال الذهبي : توفيت بعد المئة رحمها الله .

(٢) المعرفة والتّاريخ للبسويّ (١/ ٥٨) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

هند بنت المهلب

www.dawateislami.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٤)

هند بنت المهلّب

* قال الفقيه أيوب السختياني :

ما رأيت امراة أعقل من هند بنت المهلب .

هِنْدُ بِنْتُ المُهَلَّب

المَرْأَةُ العَاقِلَةُ :

* قال التَّابعي الفقيه أيوب السَّختياني ـ رحمه الله ـ : ما رأيتُ امرأةً أعقلَ من هند بنتِ المهلَّب .

* فمَنْ هند هذه المرأة العاقلة التي أثنى عليها سيِّد فقهاء عصره ، التَّابعي النَّاسك ، الزَّاهد الحافظ ، الثَّبتُ الثِّقة ، أيوب السَّختياني ؟! .

* لا شكَّ أنَّها امرأةٌ ذات حظٍّ عظيم من كمال العلْمِ ومعرفة الأدب والأخلاق ، فهل أتاكَ حديثُ هند هذه ؟ .

* إنَّها هندُ بنتُ المهلَّب بنِ أبي صُفْرة الأزديّة البَصْريّة[1] .

* وأبوها : الأميرُ ، البطلُ ، قائد الكتائب ، المهلَّب بن أبي صفرة ، ـ واسم أبي صفرة ـ سالم بن سرَّاق الأزديّ التَّابعيّ الكريم ، حدَّث عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسَمُرة بنِ جندب ، وابن عمر ، والبراء ابن عازب رضي الله عنهم . وكان المهلَّب سخيّاً ، شجاعاً ، فاضلاً ، عاقلاً ، توفي غازياً سنة (٨٢ هـ) .

* أمَّا هند ابنته فقد تزوجها الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي المشهور ،

---

(١) تاريخ الطبري (٦٨٤/٣) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٦٢) .

وكانت لها معه أخبار مُلِئَتْ بها بطون الكُتُب .

* ومنذ أنْ نشأتْ هند ـ رحمها الله ـ عُرِفَتْ برجاحةِ العَقْل ، وبُعْدِ الهمة ، كما اشتهرت بفصاحتها النَّادرة ، وبلاغتها الواضحة ، وحكمتها الهادفة ، وكمال أدبها ، وحسن خصالها ومروءتها .

* وفي جلْسَةٍ أميريّة خاصة جمعتِ الحجاجَ بن يوسف وبعض الأعيان ، جرى خلالها حديث النّساء وذِكْرُ أحوالهن ، فأدلى كلٌّ دلوه في هذا ، وتحدّث عن زوجته ، وأبانَ فضْلَها ، وما فيها من خصالٍ حميدة ؛ ولكنّ الحجّاجَ وصف نساءه بما يلذّ له السّمع ، ويطربُ له القلب ، فلونك فاستمع حديث الحجاج عن نسائه إذ قال : عندي أربعُ نسوة : هندُ بنت المهلب بن أبي صفرة ، وهندُ بنت أسماء بن خارجة ، وأمُّ الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد ، وأمةُ الرَّحمن بنت جرير بن عبد الله البَجلي .

فأمّا ليلتي عند هند بنت المهلب فليلة فتىً بين فتيان يلعب ويلعبون ؛ وأمّا ليلتي عند هند بنت أسماء فليلةُ ملك بين الملوك ؛ وأمّا ليلتي عند أمّ الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في أحاديثهم وأشعارهم ؛ وأمّا ليلتي عند أمةِ الرّحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء[1] .

* * *

العَالِمَة الرَّاوِيَةُ :

* لم تقفْ هندُ بنت المهلب عند حُسْنِ معاملة الزَّوج ، والبعد عن

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٦/١٠٤ و ١٠٥) .

سخطه ، ولم تقفْ كذلك عند أبواب القصور تجيلُ الطَّرف في زخارفها ، بل أخذتْ بنصيب موفور من العلم والرِّواية عن أكابر علماء التَّابعين ، وعمن لقوا صحابة رسول الله ﷺ فأخذوا عنهم ، ونشروا علمهم في مشارق الأرض ومغاربها .

* وطرقتْ هند أقرب أبواب العلم لديها ، فحدَّثتْ عن أبيها المهلب ـ وكان أحد رواة الحديث ـ كما حدَّثت عن الحسن البصريّ إمام التَّابعين وسيِّدهم ، وعن أبي الشَّعثاء جابر بن زيد[1] ـ رحمهم الله ـ .

وحكى عنها ابنا أخيها : حجاج بن أبي عُيينة بن المهلب ، وأخوه محمَّد بن أبي عيينة ، وزياد بن عبد الله القرشيّ ، وأبو سلمة مولى العتيك[2] .

* * *

الفَقِيْهَةُ النَّجِيْبَةُ :

* كانت هندُ بنتُ المهلب ـ رحمها الله ـ على جانبٍ عظيم من

---

(١) أبو الشَّعثاء : جابر بن زيد التَّابعي الأزديّ اليحمديّ مولاهم البصريّ الخوفيّ ـ والخوف ناحية من عمان ـ ولد سنة (٢١ هـ) كان عالم أهل البصرة في زمانه ، يُعدُّ مع الحسن البصريّ وابن سيرين ، وهو من كبار تلامذة ابن عباس . حدث عنه جلة التَّابعين ، وكان بحراً في العلم مجتهداً في العبادة لبيباً محدثاً ثقة .
قال ابنُ عباس للربابِ : تسألوني وفيكم جابر بن زيد ! وقال ابنُ حبان في الثِّقات : كان فقيهاً ، ودُفن هو وأنس بن مالك في جمعة واحدة ، وكان من أعلم النَّاس بكتاب الله عزَّ وجلَّ . كانت وفاته في سنة (٩٣ هـ) رحمه الله تعالى . (سير أعلام النبلاء ٤/٤٨١ ـ ٤٨٣) . و (تهذيب التهذيب : ٢/٣٨ و ٣٩) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٤٦٢) .

الفقه والعلم والنجابة ، فعلى الرغم من أنها زوجة أمير كبير ، وابنة أمير كريم ، وتتقلب في أحضان النعيم وأفيائه ذات اليمين وذات الشمال ، إلا أن هذه المظاهر كلها لم تمنعها من أن تعمل بيدها ، لما في هذا من أجر ، وطرد للشيطان ووساوس النفس ، وكانت تعمل بهذا من باب التفقه بالدين والدراية بالحديث الشريف ، روى تلميذها زياد بن عبد الله القرشي قال :

دخلتُ على هند بنت المهلب بن أبي صفرة امرأة الحجاج بن يوسف ؛ فرأيتُ في يدها مِغْزَلاً ، فقلتُ : أتغزلين وأنتِ امرأة أمير المؤمنين ؟! قالت : سمعتُ أبي يقول : قال رسول الله ﷺ : « أطولكن طاقةً ، أعظمكن أجراً ، وهو يطردُ الشيطان ، ويذهبُ بحديث النفس »[1] .

* ومن روايتها عن الحسن البصري ما حدثتْ بهذا الحديث فقالت : قلتُ للحسن : يا أبا سعيد ـ كنية الحسن ـ ينظر الرجل إلى عنق أخته ، وإلى قُرطها ، وإلى شعرها ؟! قال : لا ، ولا كرامة .

* وتبيّن لك من هذا القول مدى معرفة هند وحرصها على طهارة المرأة ، وتتبّعها لمواطن النقاء والطُهر حتى في بيتها ، ولهذا وصفها أيوب السختياني بقوله : ما رأيتُ امرأةً أعقل منها .

* * *

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٦٣) ، وانظر مجمع الزوائد (٤/٩٣) . وفي إسناده : يزيد بن مروان الخلال ، قال يحيى بن معين : كذاب . (ميزان الاعتدال ٤/٤٣٩) .

شَهادةٌ زاكيةٌ لأُسْتاذِها :

* لعلَّ هنداً من أقْدرِ النَّاسِ على قول الحقِّ إنْ لم تكن أقدرهن ، وفي قولها للحقِّ لا تحابي أحداً ، أو تمتدحُ أحداً بما ليس فيه ، ولكنْ تذكر صفاته الموجودة فيه ، من ذلك أنهم ذكروا عندها جابر بن زيد ـ أستاذها ـ وقالوا : إنَّه كان إباضياً (١)، قالت : كان جابر بن زيد أشد النَّاس انقطاعاً إليَّ وإلى أمّي ، فما أعلم شيئاً كان يقرّبني إلى الله إلا أمرني به ، ولا شيئاً يباعدني عند الله إلا نهاني عنه ، وما دعاني إلى الإباضية قط ، ولا أمرني بها ، وإن كان ليأمرني أين أضع الخمار ، ووضعتْ يدها على الجبهة .

* * *

هِنْدُ وعُمَرُ بن عَبْد العَزِيْز :

* هند بنت المهلب موقفٌ رائعٌ مع عمرَ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ؛ يدلُّ على وفرة عقلها ، وتمكّنها من البلاغة المقرونة بالحجّةِ اللطيفةِ ، حدَّثَ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ فقال :

قدمت هندُ بنت المهلب على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ

---

(١) « الإباضية » : أتباع عبد الله بن إباض ، وهم أكثر الخوارج اعتدالاً وبعداً عن الشطط والغلو . وجابر بن زيد هو الأزدي البصري ، أبو الشعثاء : تابعي فقيه ، من الأئمة . وكان من بحور العلم ، وصفه الشماخي ـ وهو من علماء الإباضية ـ بأنه أصل المذهب وأسّه الذي قامت عليه أعلامه . نفاه الحجاج إلى عمان ، توفي سنة (٩٣ هـ) وقال قتادة : اليوم مات أعلم أهل العراق .

بحناصرة[1] ـ وكان قد حَبَس أخاها يزيد بن المهلب ـ فقالت له : يا أمير المؤمنين علام حبستَ أخي ؟ .

قال : تخوّفتُ أنْ يشُقَّ عصا المسلمين .

فقالت له : فالعقوبة بعد الذّنب أو قبل الذّنب ؟! .

وقد كان هند ـ رحمها الله ـ مكانة عند خلفاء بني أميّة ، وكلمة مسموعة ، فقد أورد ابن الأثير[2] ـ رحمه الله ـ أنّ هنداً أرسلت إلى يزيد بن عبد الملك في أمانِ أخيها أبي عُيينة بن المهلب ، فآمنه ، واعترف بمكانتها ، وعرف قَدْرها ـ رحمها الله ـ .

* ومن الجدير بالذكر أنّ لآلِ المهلب عراقة في تاريخ السّيادة والرّياسة والسُّؤدد ، فكان يقال عنهم :

ثلاثة سادة في نَسَق :

المهلّب بن أبي صفرة ،

وابنه يزيد بن المهلّب ،

---

(١) « حُناصرة » : بُليدة من أعمال حلب تُحاذي قنسرين نحو البادية ، وذكرها المتنبي فقال :

أحبُّ حمصاً إلى حُناصرةٍ ... وكلُّ نفس تحبُّ مَحْياها

حيث الشقي حدُّها وتفاح لبـ ... ـنان وتعْري على حُمَيّاها

« محياها » : موطن حياتها ، « الحميا » : الخمر أو سورتها كما ذكرها قبله عدي بن الرقاع فقال :

وإذا الربيعُ تتابعتْ أنواؤه ... فسقى حناصرة الأحصَّ وزادها

« أنواؤه » : جمع نوء ، وهو المطر ، والعطاء (معجم البلدان : ٢/٣٩٠) .

(٢) الكامل في التاريخ (٥/٨٩) .

وابنه مخلد بن يزيد سَادَ وهو صبي .

وفيهم يقول شاعر آل المهلب واسمه المغيرة بن حبناء :

آل المهلب قوم إنّ مدحتهم
كانوا الأكارمَ آباءً وأجدادا
إنّ العرانينَ تلقاها محسّدةً
ولا ترى للئام النّاس حُسّادا[1]

وفي يزيدَ بنِ المهلب أخي هند يقول الشّاعر :

وما مات المهلّبُ مُذْ رأينا
على أعوادِ منبره يزيدا
له كفّانِ كفُّ ندىً وجودٍ
وأخرى تمطرُ العَلَقَ الحديدا[2]

* * *

منْ أقوالها وآرائها في النّساء :

* لعلّ المرأةَ أعلمُ بخبيئةِ بنات جنسها من الرّجل ، لهذا كانتْ لهند أقوال رائعةٌ تدلُّ على معرفتها خبايا زوايا النّساء وما هُنّ عليه من خفايا ، ويبدو أنّه في أقوالها ـ رحمها الله ـ نصائح للرّجال والنّساء معاً ، فهند كانت من عقلاء النّساء ، ولا تصدر قولاً إلا عن رويّةٍ وحكمة .

* ومن أبدع أقوالها وأجملها عن المرأة قولها : شيئان لا تؤمنُ المرأة

(١) « العرانين » : سادات الناس وأشرافهم وأعزتهم .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٤) .

عليهما : الرِّحالُ والطِّيبُ .

* وهذه القاعدة المبنية على الحكمة ، لا تخرج عن محور الدِّين ، فالدِّينُ حرم الاختلاط ، كما حرم الطِّيب على المرأة إنْ أرادتِ الخروجَ من بيتها ، وهذا القول يشير إلى فِقْه هند ، وإلى مدى ما بلغته في فَهْم نفسيَّة المرأة والرَّجل معاً .

* وترى هند ـ رحمها الله تعالى ـ أنَّ دواء النِّساء ـ على اختلاف أنواعهن ـ السَّتْر ، وفي هذا تقول : ما رأيت لصالحِ النِّساء وشرارهن خيراً لهن منْ إلحافهن ـ سترهن ـ بإسكانهن .

* وتسدي بهذه النَّصيحة لبنات جنسها فتقول :
رأيتُ صلاحَ الحرَّة إلْفَها ، وفسادها بحدَّتها ، وإنَّما يجمع ذلك ويفرِّقه التَّوفيق .

* والجمالُ الحقيقي للمرأة ـ عندها ـ ليس ما كَثُرَ عليها مِنَ الحليّ والجوهر والدِّيباج ، أو حتى الحُسْن فحسب ، ولكنْ لمفهوم الجمال معنى آخر ـ أعمق ـ عند هند بنت المهلَّب حيث ذُكرتْ عندها امرأةٌ بجمالٍ فقالت : ما تحلّى النِّساء بحليةٍ أحسن عليهن من لبٍّ ظاهر ، تحته أدبٌ كامل .

* نعم فالعقلُ والأدبُ هما جمال المرأة ، وفيهما تُسْعِدُ زوجها ومَنْ حولها ، وبهما تغذي أولادها ، وتعامل النَّاس على اختلاف مشاربهم .

* * *

حِكْمَتُها وجُوْدُها :

* كانت هندُ بنت المهلب ممن أوتين الحكمةَ في عصر التابعين ، ﴿ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، ولعلَّ مَصْدر حكمتها يرجع إلى البيئةِ النَّقية التي عاشتها ، وإلى الحياة الاجتماعية التي كانت في تطور مستمر عصرئذ ، أضف إلى ذلك كلّه أنَّ هنداً نفسَها قد نشأت على حبِّ العلم ومواصلة العبادة ، كما فُطرت على حبِّ الكرم الذي يؤلِّفُ القلوب ، ويجبر النُّفوس .

ولها في الكرم أخبارٌ تدلُّ على نفسيتها الفريدة في عالم نساء عصرها ، فقد كانت تكرم النِّساء اللاتي يزرنها ، وكانت ترى أنَّ يَدَ المعروف والكرم غُنْمٌ حيث كانت ، حدَّثتْ أمُّ عبد الله العَتَكي قالت :

كنت أدخل على هند بنتِ المهلب ، وهي تسبِّحُ باللؤلؤ ، فإذا فرغت من تسبيحها ، ألقَتْه إلينا فقالت : اقسمنه بينكن .

* وهذا ليس بغريب على امرأة عقدت حلفاً وثيقاً مع الجود ، وأسكنته بين جوانحها ، ففي كتابه « المحاسن والمساوىء » ذكر البيهقيُّ أنَّها أعتقت في يوم واحد أربعين رقبة .

لذلك كانت ترى هذا من نعم الله عزَّ وجلَّ عليها .

* ومن فرائد أقوالها في حثِّها على الشُّكر لأنعم الله عزَّ وجلَّ ، وتوجيه النَّاس إلى حِفْظِ النِّعمةِ ، فقلَّما عادت نعمةٌ بعد زوالها ، قالت : إذا رأيتم النِّعم مستدرة ، فبادروها بتعجيل الشُّكر قبل حلول الزَّوال[1] .

---

(١) بهجة المجالس للقرطبي (١/٣١٦) .

* ألا ترى معي أنَّ هذا القول من كمال معرفة هند بكتاب الله عز وجل، وحسن تدبّر آياته ومعانيه، فالله عزَّ وجل يقول في مُحْكَم التَّنزيل: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم: ٧].

* أمَّا الطَّاعة والمعصية فلهما تعريفان عند هند، وهذا التَّعريف ينبعُ من حكمتها، ويصدر عن عقلها، ويرتبط بالآداب العامة، ويلخّص النَّاس بأوجز لفظ في سطرين اثنين، تقول هند ـ رحمها الله ـ:

الطَّاعة مقرونة بالمحبَّةِ، فالمطيعُ محبوبٌ، وإنْ نأتْ داره، وقلَّتْ آثاره؛ والمعصيةُ مقرونةٌ باليغض، فالعاصي ممقوتٌ، وإنْ مسَّتْكَ رحمه، ونالك معروفه.

* وهذه الحكمة لا تصدر عن امرأة كهند إلا بعد معرفةِ الحقوق والواجبات في ضوء الشَّريعة الغرَّاء.

* * *

هند تعزّي نفسها:

* يُقال: إنَّ المرأة أقلّ صبراً في الحزن من الرَّجُل؛ ولكنَّ هند بنتَ المهلّب ـ رحمها الله ـ كانت من النِّسوة العاقلات في هذا المجال. ففي مجال العزاء كانت تجود بالحكمة الرَّائعة التي تجري مجرى الأمثال، وتبتعدُ عن البكاء والعويل وتقطيع الثِّياب؛ ففي كتابه « الأغاني » روى أبو الفرج الأصبهاني أنَّ ثابت قطنة[1] ـ أحد شعراء العصر الأموي ـ قد

(١) ثابت قُطْنة ـ بالنون ـ وهو ثابت بنت كعب بن جابر العنكيّ الأزديّ، أصيبتْ عينُه خراسان فجعل عليها قُطنة، فعرف بذلك.
وهو يشتبه بثابت بن قُطْبة ـ بالباء ـ وهو خراعيّ، وثابت قطنة عنكيّ.

دخل على هند بنت المهلّب لما قُتل المفضّل بن المهلب ـ أخوها ـ وكان النّاس حولها جلوساً يعزّونها ، فأنشدها من شعره في رثاء المفضّل الذي مات في سنة (١٠٢ هـ) :

يا هند[1] كيفَ ينصّبُ باتَ يبكيني
وعائرٌ في سَواد الليلِ يؤذيني
كأنَّ ليلي والأصداء هاجدة
ليلَ السَّليم وأعيا مَنْ يداويني
كان المفضَّلُ عزّاً في ذوي يُمُن
وعصمةً وثمالاً في المساكين

فقالت له هند : اجلس يا ثابت ، فقد قضيتَ الحقَّ ، وما من المرزئة ـ المصيبة ـ بدٌّ ؛ وكم منْ ميتةٍ مَيتٍ أشرف من حياة حيٍّ ، وليستِ المصيبةُ في قَتْل مَنْ استشهد ذاباً ـ مدافعاً ـ عن دينه ، مطيعاً لربّه ، وإنّما المصيبةُ فيمن قلّتْ بصيرتُه ، وخَملَ ذكره بعد موته ، وأرجو أنْ لا يكون المفضّلُ عند الله عزّ وجلّ خاملاً .

فكان يقال : إنّه ما عُزّيَ يومئذ بأحسن من كلامها ـ رحمها الله ـ .

* * *

(١) رثى ثابت قطنة يزيد بن المهلب ، فقال يخاطب أخته هنداً :
وفي غيرِ الأيام يا هندُ فاعلمي لطالب وترٍ نظرة أنْ تلوّما

رُؤيا الحجّاج وطَلاقُ هِنْدٍ :

* منْ طرائفِ الأخبـار وبديعهـا ، مـا جـاء في طلاق هند بنت المهلب ، وضرّتها هند بنت أسماء ، وذلك لحلْمٍ رآهُ زوجها الحجّاج بن يوسف ، فاعتقد أنّه إنْ طلقها تتأول رؤياه ، ولكنْ هل تحققتِ الرُّؤيا ؟ وهل جعلها الله حقاً ؟ .

* إذن تعالوا نستمع قصة هذا الحلم الطَّريف .

قالوا : إنَّ الحجاج بن يوسف الثَّقفي كان قد رأى في منامه أنَّ عينيه قُلعتا ، وكانت تحته هند بنت المهلب ، وهند بنت أسماء ، فطلَّق الهندين اعتقاداً منه أنَّ رؤياه تتأول بهما ـ إذ قلعهما بزعمه من البيت ـ فلمْ يلبث أنْ جاءه نعيُ أخيه محمّد بن يوسف في اليوم الذي مات فيه ابنه محمّد بن الحجاج .

فقال : والله هذا تأويل رؤياي من قبل ، محمّد ومحمّد في يوم واحد ، إنّا لله وإنا إليه راجعون ، ثم أنشأ يقول :

حسبـي حيـاة اللهِ منْ كلّ ميّتٍ
وحسبـي بقـاء اللهِ من كلّ هـالك

ثم قال لجلسائه : مَنْ يقول شعراً يسليني به ؟ .

فقال الفرزدق : أنا أيها الأمير ، ثم أنشأ يقول :

إنَّ الرَّزيـةَ لا رزيـةَ مثـلهـا
فقـدان مثـلِ محمّـد ومحمّـدِ

مَلِكَـــان قد خلتِ المنـايرَ منهمـا
أخذ الحِمـام عليهمـا بالمرصـدِ[1]

* وبهذا انتهت العـلاقة الزَّوجيـة[2] بين هند بنت المهلب وبين الحجاج بن يوسف . أما عن حياة هند بعد إذ ، فيبدو أنَّها قد عاشت إلى أوائل القرن الثاني من الهجرة بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فقد توفي عمر في سنة (١٠١ هـ) .

* ولا نملك دليلاً قاطعاً يحدد سنة وفاة هند ، ولكنَّ أخبارها التي وصلتنا تشير إلى أنَّ وفاتها كانت بعد سنة (١٠١ هـ) .

* رحم الله هند بنت المهلب ، وغفر لها ، وفي وداع سيرتها نتذكر أثارة من قولها :

إذا رأيتم النِّعم مستدرةً فبادروها بتعجيل الشُّكر قبلَ حلولِ الزَّوالِ .

حمداً لك ربنا ، على ما أوليتنا من نِعَم لا تحصى ، وآخر دعوانا أن الحمد للهِ ربِّ العالمين .

* * *

(١) انظر في هذا : وفيات الأعيان (٢/٥٣ و ٥٤) ، وربيع الأبرار (٥/١٩٣) .

(٢) ذكر الطَّبري وابن الأثير سبب طلاق هند بنت المهلب بوجه آخر فقالا : إنَّ يزيد بن المهلب كان في سجن الحجاج سنة (٩٠ هـ) ومعه إخوته ، وأخذ الحجاج يعذبهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك . فقيل له : إنَّه رُمي بشابةٍ فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسها شيء إلا صاح ، فأمر أنْ يُعذَّب بذلك .
فلما فعل به صاح ، فلما سمعت هند صياح أخيها يزيد ، صاحت وناحت فطلقها الحجاج . عن تاريخ الطبري ملخصاً (٣/٦٨٤) ، والكامل (٥/٥٤٥) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

خيرة أم الحسن البصري

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١١)

خَيْرة أمّ الحَسَن البصريّ

* مولاة أم المؤمنين أم سلمة ، راوية للحديث النبوي ، ذكرها ابن حبان في الثقات ، روى لها الجماعة كلهم إلا البخاري .

خَيْرَةُ أُمُّ الحَسَنِ البَصْرِيّ

أُمُّ العُلَمَاءِ :

* تصدّتِ المرأةُ في عصر التّابعين لفنون العلم ، وأمعنتْ في ذلك إمعاناً سابقت فيه الرّجل ، فكان لها الأثر المحمود في مجالات نافعة ؛ منها الرّواية .

* والتّابعية التي نحن بصدد دراسة سيرتها ، إحدى هؤلاء النّسوة ممن كُتِبَ لهنّ الخلود في دنيا المعرفة ، وذلك لما كانت عليه من عِلْم وزُهد وفقه ، ناهيك بأنّها ولدتْ رجلين كانا منْ أعظَمِ رجال الدُّنيا علماً وفضلاً وزهداً وأدباً .

* فأولهما وأشهرهما : الحسن بن أبي الحسن يسار التّابعي البصريّ الأنصاريّ ، شيخ أهل البصرة ، وسيّد أهل زمانه في العلم والعمل ، قال عنه محمّد بن سعد ـ رحمه الله ـ :

كان الحسنُ رحمه الله جامعاً ، عالماً ، رفيعاً ، فقيهاً ، ثقةً ، مأموناً ، عابداً ، ناسكاً ، كثيرَ العلم ، فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً[1] .

وقال عنه الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ :

---

(١) الطبقات (١٥٧/٧) .

كان رجلاً تام الشّكل ، مليح الصُّورة ، بهياً ، وكان من الشّجعان الموصوفين[1] .

* وثانيهما : سعيد بن أبي الحسن يسار البصريّ ، من ثقات التّابعين ، حدّث عن أمّه ، وتخرج في مدرستها ، وثّقه النسائي وغيره ، وكان من خيرة الزُّهاد العباد ، وكان يُسمّى راهباً لدِينه ، وحديثه في الدّواوين كلّها ـ رحمه الله تعالى ـ .

* أمّا والدة هذين العَلَمَيْن الخيّرَيْن ، فهي خيرة أُمُّ الحسن البصريّ ، وتعرفُ بأنّها مولاة أمّ سلمة[2] أمّ المؤمنين ، رضي الله تعالى عنها وعن أمهات المؤمنين .

* كانت خيرةُ ـ رحمها الله ـ من فضليات نساء عصر التّابعين ، ومن ثقاتهن ، وممن تلقّين العلْم عن أمهات المؤمنين ، وممن رأينهن ، وأخذن عنهن كثيراً من الأحكام النّافعة .

* * *

خَيْرةُ وبدايةٌ خَيِّرةٌ :

* كانت خيرة أم الحسن البصريّ مولاةً لأمّ سلمة أمّ المؤمنين المخزومية ـ رضي الله عنها ـ . أمّا زوجها يسار فكان من سبي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٥٧٢ .

(٢) الطّبقات (٨/٤٧٦) ، ووفيات الأعيان (٢/٦٩) ، وأمالي المرتضى (١/١٥٢) ، وتهذيب التّهذيب (١٢/٤١٦) .

« ميسان »[1]، سكن المدينة المنوّرة وأُعتِقَ، ثم ما لبثَ بعد ذلك أنْ تزوّج من امرأة فاضلة هي خَيْرة مولاة أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، وذلك في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ .

* وكانت خَيْرةُ من خِيرةِ الزّوجات مع أزواجهن إذ كانت ترعى شؤونه ، وتقوم على أموره دون أن تُخلّ في خدمتها لأمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ . وقد منّ الله عزّ وجلّ على هذين الزّوجين المخلصَيْن بِخَيْرَةِ الذُّرِيّة الصّالحة التي حفظتْ حياتهما فيما بعد عن طريق العلم الذي يزيّن الإنسان ويحيي ذكره ، فقد ولدت ابنها الحسن لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، أي في سنة (٢١ هـ) .

* وفي مدرسة أمّ المؤمنين أمّ سلمة تخرجت خيرة وروت عنها ، كما أنّها روت عن عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

* وروى عن خيرةَ عددٌ من جلّةِ التّابعين رجالاً ونساء ، فأمّا من روى عنها من الرّجال : فابناها الحسنُ وسعيد ، وعليُّ بن زيد بن جُدْعان[2] ، ومعاوية بن قرة المزني[3] وهؤلاء من صفوة التّابعين وأكابرهم وثقاتهم .

---

(١) قال ياقوت الحموي : « ميسان » : كورة واسعة كثيرة الغرس والنّخل (معجم البلدان : ٥/٢٤٢) .
وقال السّمعاني : هي بُليدة بأسفل البصرة .

(٢) هو علي بن زيد بن عبد الله بن زهير بن جُدْعان ، أبو الحسن القرشي التيمي البصري : فقيه ، أحد علماء التابعين ، من حفّاظ الحديث الأئمة . قال الترمذي : صدوق ، وقال أحمد : ضعيف . وقال الذهبي : أحد أوعية العلم في زمانه . توفي سنة (١٢٩ هـ) .

(٣) معاويةُ بنُ قرة بن إياس : الإمامُ القدوة ، أبو إياس المزنيّ البصريّ التابعيّ ، والد=

* وأمّا مَنْ روى عنها من النّساء ، فسيّدة التّابعيات حفصة بنت سيرين أمّ الهذيل الأنصاريّة البصريّة ، التي قال عنها إياس بن معاوية : ما أدركت أحداً أفضله عليها . وحفظتِ القرآن وهي بنت ثنتي عشرة سنة ؛ وفضّلها إياسٌ على الحسن البصري ، وعلى أخيها محمد بن سيرين في العلم والعبادة .

* وقد روت خيرة أنّها رأت أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ تصلّي في درع وخمار .

* وقد روى لها الجماعة كلّهم إلا الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ .

* * *

خَيْرَةُ وأمُّ سَلَمَةَ :

* كانت خيرة ـ رحمها الله ـ ملازمةً لأمّ سلمةَ ـ رضي الله عنها ـ ، فهي مولاة لها ، وكانت تخدمها وتقومُ على شؤونها من أعمال في البيت ، أو عناية بأولادها ، والقيام على أمورهم وما يصلحهم .

* فقد روى الحسن عن أمّه خيرة أنّها كانت ترضع لأمّ سلمة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

= القاضي إياس . روى عن عدد من الصّحابة وروى عنه أكابر التّابعين . وثّقه النّسائي وابن معين والعجلي ، وأبو حاتم وابن سعد ، وذكره ابن حبّان في الثّقات وقال عنه : كان من عقلاء الرّجال . ومن كلامه : لا تجالسْ بعلمك السّفهاء ، وتجالس بسفهك العلماء . توفي سنة (١٢٣ هـ) وله (٧٦) سنة ـ رحمه الله ـ . (سير أعلام النبلاء : ٥/١٥٣ ـ ١٥٥) ، و (تهذيب التهذيب : ١٠/٢١٦ و ٢١٧) .

* ويبدو أنَّ خيرةَ كانت تتفانى في خدمة أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، وكانت أمّ سلمة تحسنُ إلى خيرة أفضل إحسانٍ إذا ما أرسلتها لحاجتها ، فقد ورد أنَّ أمَّ سلمةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت تبعثُ خيرةَ في الحاجة ، فتشتغلُ عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فيبكي ، فتشاغله أمّ سلمة بثديها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أنَّ تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركةِ تلك الرّضاعة من الثّدي المنسوب إلى رسول الله ﷺ .

* ومما ورد أيضاً أنَّ أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ كانت تُخرِجُ الحسن وهو صغير إلى أصحاب النّبي ﷺ فكانوا يدعون له ، فأخرجته مرّةً إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فدعا له وقال : اللهم فقّهه في الدّين ، وحبّبه إلى النّاس[1] .

* وبهذا نالت خيرة في ابنها الحسن بركة دعاء سيّدنا عمر ، فكان من خيار التّابعين ، وكان الرّجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به ، وإنْ لم يرَ عمله ولم يسمعْ كلامه ، وعنه قالوا : ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء .

* ولعل خيرةَ أمّ الحسن قد أفادت كثيراً من حفْظِ أمّ سلمة ومعارفها لانقطاعها إليها ، فأمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ من الصّحابيات المكثرات لرواية أحاديث النّبيّ ﷺ ؛ ناهيك بأنّها زوجه ﷺ ، ولعلّها أكثر امرأة روت الحديث وحفظته بعد أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله

---

(١) انظر البداية والنهاية (٦/٢٧٨) ، ووفيات الأعيان (٢/٦٩ و ٧٠) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٥٦٤ و ٥٦٥) .

عنها ـ ، فقد روتْ أم سلمة (٣٧٨ حديثاً) ، وهذا العددُ المبارك من الأحاديث جعلها في مقدمة الفقيهات العالمات . ومن هذا الباب انتفعت خيرة بالرّواية عنها ، والاستفادة من علومها ـ رضي الله عنها ـ .

* * *

مع ابنِها الحَسَن :

* أوتيتْ خيرةُ ـ رحمها الله ـ خيراً كثيراً ، لملازمتها أمّ المؤمنين أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، وقد كانت هذه التّابعية جيّدة الفَهْم ، كثيرة الحفظ والضّبْط ، فقد ذكرها ابنُ حبّان ـ رحمه الله ـ في الثّقات .

* وكانت خيرة ـ رحمها الله ـ تجلسُ إلى النّساء وتعظُهن ، وترشدهن إلى الأحكام التي تلقّتْها عن أمّ المؤمنين عائشة ، وأمّ سلمة ـ رضي الله عنهما ـ . ويبدو أنّ خيرة كانت تعتدُّ بنفسها وبحفظها بعض الشّيء ، وترى أنّها فوق ابنها في العلم والمعرفة ، فمن طريف ما يروى في هذا ، ما أورده ابن خلّكان في « الوفيات » عن الحسن وأمه قال : كانت أمُّه ـ خيرة ـ تقصُّ على النّساء ، ودخل عليها ـ الحسنُ ـ يوماً وفي يدها كرّاثة تأكلها ، فقال لها : يا أمّاه ، ألقي هذه البقلة الخبيثة من يدك .

فقالت : يا بني إنّك شيخٌ قد كبرت وخرفت .

فقال : يا أمّاه ، أيّنا أكبر ؟!! .

---

(١) وفيات الأعيان (٢/٧٢) ، وانظر تهذيب التهذيب (١٢/٤١٦) .

* ومن هذا الخبر الطّريف ، نستدل بأنّ خيرة قد عمرت دهراً لقولها لابنها الحسن[1] إنّك قد كبرت وخرفت . ولكننا لا نستطيع تحديد زمن وفاتها . وأغلب الظّن أنّها توفيت في نهاية القرن الهجري الأول ، والله أعلم .

* رحم الله خيرة أمّ الحسن ، وأحسن مثواها ، وجعلها مع الأخيار الأبرار في مستقر رحمته .

* * *

(١) توفي الحسن سنة (١١٠ هـ) رحمه الله .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

ميسون بنت بحدل

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٣)

ميسُون بنت بَحدل

• قال ابن كثير :

كانت حازمة ، عظيمة الشأن : جمالاً ورياسة وعقلاً ودِيناً .

مَيْسُونُ بنتُ بَحْدَل الكلبيّة

صِفاتٌ فاضِلَةٌ :

* امرأةٌ ارتقتْ إلى أسباب الشُّهرة في اليوم الذي انتقلتْ فيه من بداوتها إلى قصور الأمراء والخلفاء ، فكانت من عداد النِّساء التَّابعيات الفاضلات .

* كانت إحدى فرائد قومها ومعدوداتهن جمالاً وشرفاً ، ولكنّها بما أنعم اللهُ عليها من عقل كبير ، ورأي صائب ، وأدبٍ وفضل ، كانت من أشهرهن في دنيا التَّاريخ وفي تاريخ الدنيا .

* وَصَفَها الحافظُ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ فقال : كانت ـ امرأة ـ حازمة ، عظيمة الشَّأنِ جمالاً ورياسة وعقلاً ودِيْناً[1] .

* وهذه الصِّفاتُ الموجودة في هذه المرأة تجعلها في مقدمة النِّساء اللاتي خلَّد الدَّهر مقاماتهن ، ورسم فضلَهن ، وقيَّدَ آثارهن ، وحفظ مقالاتهن في سجلِّهِ الكبير ، فحرن بذلك الخلود ، وكن القدوة الصالحة لمن أتى بعدهن من النساء .

* أورد ابنُ عساكر ترجمتها فقال : مَيْسون بنتُ بَحْدل[2] بن أنيف

(١) البداية والنهاية (٨/١٤٨) .

(٢) « بَحْدل » : مالت كتفه وأسرع في المشي ؛ والبحلة : الخفة في السَّعي .

الكلبيّة ـ من بني حارثة ـ زوج معاوية بن أبي سفيان ، وأمُّ يزيد بن معاوية ، روت عن معاويةَ ، وروى عنها محمّد بن علي[1] .

* * *

اللبيبةُ النَّبِيلةُ :

* لما اتصلتْ ميسون بمعاويةَ رضي الله عنه ، وجاء بها من البَدْوِ ، وكانت ذات جمال باهر ، وحُسْن غامرٍ ، وعقل متوقّد ، وبصيرةٍ نافذة ، فأنزلها منزلةً لائقةً ؛ لِدِيْنِهَا ورجاحة عقلها ؛ ومما ظهر له منها من كمال الخصال ، وإصابة الرأي ما ذكرته المصادر من أنَّ زوجها معاوية دخل عليها يوماً ، ومعه خادم خصي له ، فاستترتْ منه وقالت : ما هذا الرَّجل معك ؟ فقال : أتستترين منه ؟ إنّه خصيٌّ ، وإنّما هو مثل المرأة فاظهري عليه ! .

فأجابته إجابةً حكيمةً فقالت : أترى أنَّ المُثْلة تحلُّ ما حرَّم الله عليه ؟ وفي رواية أنّها قالت له : إنَّ مجرَّدَ مُثْلتك له تحلّ ما حرّمه الله عليه ؟! ثمّ حجبتْهُ عنها[2] .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٣٩٧) . ومحمد بن علي لعله محمّد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام ، ولد سنة (٢١ هـ) بالمدينة ، وهو أخو الحسن والحسين لأبيهما ، وأمّه خولة بنت جعفر الحنفية ، يُنسب إليها تمييزاً له عنهما . وكان واسع العلم ، ورعاً ، أسود اللون ، وأخباره كثيرة . توفي بالمدينة سنة (٨١ هـ) . عن الأعلام (٦/٢٧٠) مختصراً .

(٢) الحيوان للجاحظ (١/١٧٧) ، وتاريخ دمشق (ص ٣٩٧) ، والبداية والنهاية (٨/١٤٨) ، ومهجة المجالس للقرطبي (٢/٤٥) .

* وأُعجب معاوية بهذه الإجابة التي تدلُّ على فقهها وعلمها ، وسُرَّ بها سروراً عظيماً ، وازداد بها عجباً وإليها ميلاً ، ولهذا أولى الله ابنها يزيد بالخلافة بعد أبيه .

* ومثل هذه الخصال اللطيفة الحميدة ، كانت ميسون من أشهر نساء معاوية ، وقد ولدت له ابنه يزيد ، وذكر بعض أهل الأخبار أنها ولدت له ابنة اسمها : أمة ربِّ المشارق ، فماتتْ وهي صغيرة[1] .

* * *

فِرَاسَتُهَا وذَكَاؤُهَا :

* تدلُّ الأخبارُ التي وصلتنا عن ميسون ـ رحمها الله ـ أنَّها كانت ذات فراسة نادرة المثال في غيرها من النِّساء ، وكان سيِّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ يأنسُ إليها ، ويأخذ برأيها ؛ لما عهد فيه من سلامةٍ وصحة ، فعندما تزوَّج معاوية نائلة بنت عمارة الكلبية قال لميسون : ادخلي فانظري إلى ابنةِ عمِّك ، فدخلتْ ونظرتْ إليها ، فسألها عنها قائلاً : كيف رأيتها ؟ قالت : إنَّها لكاملة الجمال ، ولكنْ رأيتُ تحت سرَّتها خالاً ، وإنِّي لأرى هذه يُقتل زوجها ويُوضع رأسه في حجرها ، فتطيَّر من ذلك فطلَّقها ، فتزوجها بعده حبيب بن مسلمة الفِهْري ثم طلَّقها ، ثم خلف عليها بعده النُّعمان بن بشير الأنصاري ، فقُتل ، ووضع رأسه في حجرها[2] .

---

(١) الكامل في التاريخ (٤/١٠) .

(٢) عن تاريخ الطبري (٣/٢٦٤) ، والأغاني (١٤/١١٩) ، والبداية والنهاية (٨/١٤٨) بتصرف يسير .

* وبهذا كانت ميسون صاحبة فراسة صائبة ، إذْ وقع ما كانت تتوقّعه في نائلة بنت عمارة الكلبية .

* * *

مَيْسُون وابنُهَا يَزِيْد :

إنَّ يـزيـد خـيـر شبّـان العـرب
أحلمُهم عند الرّضى وفي الغضب
يبـدر بـالبـذْلِ وإنْ سـيـلَ وهب
تفـديـه نفسـي ثمّ أمّي وأب
وأسرتي كلّهم منَ العطب[1]

* بهذا الشّعر ، ومثله ، كانت ميسون بنت بحدل ترقّصُ ابنها يزيد بن معاوية وهو صغير ، حيث كانت ـ بفراستها ـ تتوسّم فيه النّجابة والحلم والكرم ، وغير ذلك من الشّمائل التي تخلّد النّاس ، وتجعلهم في مصافّ الأعلام الخالدين .

* لذا فقد كانت ميسون ترعى ابنها رعايةً خاصة ، وتربّيه على حبّ الفضيلة ، ولعلّ عنايتها به ترجعُ إلى أنّها رأتْ في المنام ـ وهي حامل به ـ أنّه خرج منها قمر ، فقصّت رؤياها على أمّها فقالت : إنْ صدقتْ رؤياك لتلِدنّ مَنْ يُبايَعُ له بالخلافة[2] . وظلّ هذا الحلم يراودُها حتى ولدتْ يزيداً .

---

(١) المنمق في أخبار قريش لابن حبيب (ص ٣٤٩) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٢٣٠) .

* وجلستْ يوماً تمشط وتزيّن ابنها ، وكان أبوه معاوية مع زوجته الحظية عنده في المنظرة ـ وهي فاختة بنت قرظة ـ فلما فرغت ميسون من مشطه ، نظرت إليه فأعجبها فقبّلته بين عينيه ، فقال معاوية عند ذلك :

إذا ماتَ لم تفلحْ مُزينةُ بعده
فنُوطي عليه يا مزين التّمائما[1]

وانطلق يزيد يمشي وفاختة تتبعه بصرها ، ثم قالت : لعن الله سواد ساقَيْ أمّك .

فقال معاوية : أما والله إنّه لخيرٌ من ابنك عبد الله ـ وهو ولده من فاختة وكان أحمق ـ فقالت فاختة : لا والله ، لكنّك تؤثر هذا عليه . فقال : سوف أبيّن لكِ ذلك حتى تعرفيه قبل أنْ تقومي من مجلسكِ هذا .

* ثم استدعى ابنها عبد الله فقال له : إنّه قد بدا لي أنْ أعطيكَ كلّ ما تسألني في مجلسي هذا .

فقال : حاجتي أنْ تشتريَ لي كلباً فارهاً ، وحماراً فارهاً .

فقال : يا بني أنت الحمار وتشتري لك حماراً ؟! قم فاخرج .

ثم قال لأمّه : كيف رأيتِ يا بنت قرظة ؟ .

* ثم استدعى ابن ميسون يزيد فقال : إنّي قد بدا لي أنْ أعطيك كلّ

(١) « نوطي » : علقي ، « التمائم » : جمع تميمة : العقد في العنق ، أو ما كان يوضع حذر الحسد أو العين .

ما تسألني في مجلسي هذا ، فسلني ما بدا لك . فخرّ يزيد ساجداً ، ثم قال حين رفع رأسه : الحمد لله الذي بلّغ أمير المؤمنين هذه المدة ، وأراه في هذا الرأي ، حاجتي يا أمير المؤمنين أنْ تعقد لي العهد من بعدك ، وتوليني العام صائفة المسلمين ، وتأذن لي في الحج إذا رجعت ، وتوليني الموسم ، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير كلّ رجل في عطائه ، وتجعل ذلك بشفاعتي ، وتعرض لأيتام بني جمح ، وأيتام بني سهم ، وأيتام بني عديّ .

فقال معاوية : ما لك ولأيتام بني عديّ ؟ .

قال يزيد : لأنّهم حالفوني وانتقلوا إلى داري .

فقال معاوية : قد فعلتُ ذلك كلّه .

وقبّلَ وجهه ، ثم قال لفاختةَ بنت قرظة : كيف رأيت ؟ .

فقالت : يا أمير المؤمنين أوْصِهِ بي ، فأنتَ أعلمُ به مني[1] .

* * *

حنينُها إلى البادية :

* على الرّغم منْ أنّ ميسون اشتهرت بالفصاحة والبيان ، وعلى الرّغم من أنّ معاويةَ ــ رضي الله عنه ــ كان يجلّها ويحترمها ، إلا أنّ هذا لمْ يمنعْ ميسون من الحنين إلى مرتع طفولتها في البادية ، وتكثر من ذِكْر أهلها وحياتهم البسيطة وصفوِ عيشهم ، وبعدِهم عما يكدرهم ، وتزهدُ في القصور العالية ، والسُّرر المرفوعة ، والأكواب الموضوعة ، والنّمارق

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٠) بتصرف يسير جداً .

المصفوفة ، والزَّرابي المبثوثة ، وكلّ آيات البهجة المَدَنيّة ، وكرهت الحضارة والتَّمدُّن وسُكنى المدينة .

* ففي كتابه اللطيف الظَّريف « حياة الحيوان » أورد الدّميري ـ رحمه الله ـ أنَّ سيدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد هيَّأ لميسون قصراً مشرفاً على الغوطة ، وزيّنه بأنواع الزَّخارف ، ووضع فيه من أواني الفضة والذّهب ما يضاهيه ، ونقل إليه من الدّيباج الروميّ الملوّن والموشّى ما هو لائقٌ به ، ثم أسكنها مع وصائفَ لها كأمثال الحور العين ، فلبست يوماً أفخر ثيابها ، وتزيّنتْ وتطيّبتْ بما أعدَّ لها من الحليّ والجوهر الذي لا يوجد مثله ، ثم جلستْ في روشنها[1] وحولها الوصائف ، فنظرت إلى الغوطةِ وأشجارها ، وسمعت تجاوب الطير في أوكارها ، وشمّت نسيم الأزهار ، وروائح الرّياحين والنّوار ، فتذكرت باديتها وحنّتْ إلى أترابها وأناسها ، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهّدت ، فقالت لها بعض حظاياها : ما يبكيك وأنتِ في مُلْكٍ يضاهي ملْك بِلْقيس ؟ ؛ فتنفّستِ الصُّعَداء ، ثم أنشدت :

لبيتٌ تخفق الأرْواح فيهِ
أحبّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
وبَكْرٌ يتبعُ الأظعانَ سَقْباً
أحبّ إليَّ من بَغْلٍ زفوفِ[2]

---

(١) « روشنها » : الروشن : الشُّرفة .

(٢) « البَكْر » : الفتي من الإبل . و « السَّقْب » : الذّكر من ولد النّاقة . « زفوف » : سريع .

وكلبٌ ينبح الطُّراق عني
أحبَّ إليَّ من قطٍّ أليفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني
أحبَّ إليَّ من لبس الشُّفوفِ (١)
وأكل كُسيرةٍ في كِسْر بيتي
أحبَّ إليَّ من أكلِ الرَّغيفِ (٢)
وأصواتُ الرِّياح بكلِّ فجٍّ
أحبَّ إليَّ من نَقْرِ الدُّفوفِ
وزحْرفٍ من بني عمي نحيف
أحبَّ إليَّ من عِلْجٍ عليفِ (٣)
خشونةُ عيشي في البدو أشهى
إلى نفسي من العيش الطَّريفِ
فما أبغي سوى وطني بديلاً
فحسبي ذاك منْ وطرٍ شريفِ

فلما دخل معاوية عرَّفتْه الحظيَّة بما قالت ، وقيل : إنَّه سمعها وهي تنشدُ ذلك فقال : ما رضيتْ ابنة بَحْدَل حتى جعلتني عِلجاً علوفاً ، هي طالق ، مُرُوها فلتأخذْ جميعَ ما في القصر فهو لها ، ثم سيِّرها إلى أهلها

---

(١) « الشُّفوف » : جمع شف ، بكسر الشين وفتحها ، وهو الثوب الرَّقيق ، سُمي بذلك لأنه يشفُّ ما وراءه .

(٢) « الكُسيرة » : القطعة من الخبز . و « الكِسْر » : طرف الحباء من الأرض .

(٣) « الزَّحرف » : الفتى السِّمح الكريم . « العلج » : الشَّديد ، وبه سمي حمار الوحش ، تقصد بذلك معاوية .

بالبادية ، فأخذت معها ابنها يزيد ، فنشأ في البرّيّة فصيحاً[1] .

* ونقل البغداديُّ ـ رحمه الله ـ في « خزانة الأدب » أنَّ معاوية لما طلقها قال لها : كُنْتِ فَبِنْتِ ؛ فأجابته : ما سُرِرنا إذْ كُنّا ، ولا أسفْنا إذْ بِنّا[2] . ولله درّ القائل حيث أشار إلى هذا في قوله :

وحبّبَ أوطانُ الرّجال إليهم
مآرب قضّاها الشّباب هنالكا
إذا ذكروا الأوطان ذكّرهم
عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا[3]

---

(١) حياة الحيوان (٢/٢١٢) بتصرف يسير جداً . وانظر الحماسة الشجرية (٢/٥٧٣ و ٥٧٤) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٠٠ و ٤٠١) ، وشاعرات العرب (ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧) ، والأعلام (٧/٣٣٩) .. ولعلّ هذه القصيدة التي أوردها كُتّاب التّراجم هي السّبب في شهرة ميسون بنت بحدل ؛ لأنّها منثورة في كتب الأدب أيضاً وكتب التّاريخ ، وبعضها من الشّواهد النّحوية عند أعلام النّحاة ، ولكنْ من حقّ الأمانة علينا أنْ نقدّرَ هذه المرأة التي تُعتبر في مصافّ التّابعيات ـ فهي زوجة صحابي ـ وراوية للحديث ، من ذلك الحديث الذي روته عن زوجها معاوية أنّ النبي ﷺ قال : « سيكون قوم ينافقهم الإخصاء فاستوصوا بهم خيراً » (تاريخ دمشق ص٣٩٧) هذا ، وإنّ احتفاظ الكُتُب بمقالاتها ونتف من أقوالها ، لدليلٌ على مكانتها ، ودليل على فضلها عن غيرها من عاصرهامن نساء الخلفاء ـ رحمها الله ـ .

(٢) خزانة الأدب (٣/٥٩٣) .

(٣) أورد الشّيخ محيي الدّين بن العربي ـ رحمه الله ـ في كتابه اللطيف النّفيس (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ٢/٧٠) خبراً جميلاً يشبه قصة ميسون بنت بحدل ، فذكر أنّ بعضَ الخلفاء تزوّج بنتاً من بنات الأعراب ، ونقلها من البادية إلى قصرٍ على شاطئ دجلة ، فتغيّر عليها الحال ، وكانت تحنُّ إلى ما نشأتْ عليه ، فبنى لها هذا القصر ، وأمرَ بالإبل والغنم أنْ تُحلب بكرةً وعشية على باب قصرها في البرية ، =

* ومن طريف ما يروى عن طلاق ميسون ، ما ذكره ابن حبيب البغدادي قال : كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد طلّق ميسون ، فأتاه محمّد بن حاطب الجُمَحيّ ـ وكان أحمق ـ فقال له معاوية : ما حاجتك يا بن حاطب ؟ .

قال : جئتُ خاطباً .

قال : ومَنْ ذكرتَ ؟! .

قال : ميسون بنت بحدل الكلبيّة أمّ يزيد .

فسكتَ معاوية . قال : ما تقول يا أمير المؤمنين في هذا ؟ .

قال : أقول : إنّك حمار . فخرج من عنده فما زال يقول : قال : إنّك حمار ، قال إنّك ... حتى دخل إلى منزله[1] .

* وامتدتِ الحياةُ بميسونَ ، وعاشت إلى نحو سنة (٨٠ هـ) ـ رحمها الله ـ .

= فأنست ببعض الأنس ، فدخل عليها الخليفة يوماً وهي تبكي وتقول :

وما ذنبُ أعرابيةٍ قذفتْ بها ... صروفُ النّوى من حيث لم تكُ ظنّتِ
تمنّتْ أحاليبَ الرُّعاة وخيمةً ... بنَجْدٍ فلم يُقْضَ لها ما تمنّتِ
إذا ذكرتْ ماءَ العُذيب وطيّبه ... وبَرْدَ حصاه آخرَ اللّيلِ حنّتِ
لها أنّةٌ عند العشاء وأنّةٌ ... مُحيراً ولولا أنّاتها لحنّتِ

فذكر أنّه قال لها : الحقي بأهلك بكل ما معك ، فسرتْ بذلك ولحقتْ بأهلها .

(١) المنمق في أخبار قريش (ص ٣٩٠ و ٣٩١) .

* وبعد ، فهذه شذراتٌ مِنْ سيرة امرأةٍ في عصر التَّابعين كانت في الذّروة والسَّنام من الإعزاز ، وأصبحت زوجة خليفة تجر أذيال النعمة بين خدمها ووصائفها ، ولكنَّ ذلك النَّعيم لم يؤثرْ في شيءٍ من نشأتها ونقاءِ فطرتها ، ولا صفاء طبيعتها ، فأصبحتْ في سجلِّ الخالدات .

* رحم الله ميسون بنت بحدل ، وأجزلَ لها المثوبة ، وأنزلها مع الأبرار .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

أم كلثوم بنت علي

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٠)

أمّ كلثوم بنت عليّ

• زوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فصيحة ، صاحبة الخطبة المشهورة في أهل الكوفة ، لها منقبة عظيمة فجدّها رسول الله ﷺ وأبوها علي بن أبي طالب رضي الله عنها .

أُمُّ كُلْثُوم بِنْتُ عَلِيّ

البَيْتُ الطَّاهِرُ :

* أمُّ كُلثوم بنت عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشميّة ، شقيقة الحسن والحسين ، وُلدت في حياة جدّها رسول الله ﷺ ؛ في حدود سنة ست من الهجرة[1] ، وقد سمّاها رسول الله ﷺ بأمّ كلثوم ، وقد رأت النّبيّ ﷺ ولم ترو عنه شيئاً .

* وفي البيت الذي أذْهَبَ الله عنه الرِّجس ، وطهّره تطهيراً ، نشأت أمّ كلثوم ونَعِمَتْ بأكرمِ أمٍّ في الدُّنيا ، فأمُّها فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيّدة نساء العالمين ، وقد صُنِعَتْ أمّ كلثوم على عينَي والديها ، وكان جدُّها رسول الله ﷺ يحوطها برعايته وحنيّه .

* ولما بلغتْ أمُّ كلثوم أشدّها كانت مِنْ أفصح بنات قريش ، وكيف لا ، وقد غُذّيت البلاغة في البيت النّبوي القرشيّ ؟ فأكرِمْ به مِنْ بيت ! .

* * *

(١) الطبقات (٤٦٣/٨) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٠/٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٣٦٥/٢) ، والإصابة (٤٦٨/٤) . وقد آثرنا أن نكتب عن حياة أم كلثوم في نساء عصر التابعين على الرغم من أن ولادتها كانت في أخريات العهد النبوي .

بارَكَ اللهُ فيكِ :

* أحبَّ سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو أميرُ المؤمنين ـ أنْ يصلَ نسبه وسببه برسول الله ﷺ ، بزواجه من أمّ كلثوم ابنة عليّ وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ .

وانطلقَ عمر فأتى عليّاً ، وخطب إليه ابنته أمّ كلثوم وكلّمه في أمرِها ـ وكانت ما تزال صبيّةً دونَ البلوغ ـ فقال علي ـ رضي الله عنه ـ : إنما حبستُ بناتي على بني جعفر ـ أولاد أخيه ـ .

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : زوجنيها يا عليّ ! فو الله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد ـ أي أعدّ ـ . فقال عليّ : قد فعلتُ .

ثمّ غدا عليٌّ على بيته وأمر ببُرْد ـ ثوب ـ فطواه ، وقال لأمّ كلثوم : انطلقي بهذا إلى أمير المؤمنين فقولي له : أرسلني أبي ، وهو يقرئك السّلام ويقول : إنْ رضيتَ البُرد فأمسكه ، وإنْ سخطته فردّه .

فلما أتتْ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : بارَكَ اللهُ فيكِ وفي أبيكِ قد رضينا .

فرجعتْ أمّ كلثوم إلى أبيها فقالت : ما نشر البُرْدَ ولا نظر إلا إليَّ . فزوّجها إياه .

* وسرَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ بإصهاره بيت رسول الله ﷺ ، ثم جاء المسجد النّبويّ ، إلى مجلس المهاجرين بين القبر والمنبر ، وكان يجلس فيه المهاجرون الأولون : عليٌّ وعثمانُ والزُّبير وطلحةُ وعبدُ الرحمن بن

عوف ـ رضي الله عنهم ـ فإذا كان الشيء يأتي عمر بن الخطاب من الآفاق جاءهم فأخبرهم بذلك ، واستشارهم فيه .

فجاء عمر فقال : هنوتي ، فهنوه وقالوا ، بمَنْ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بابنة علي بن أبي طالب ؛ ثم أنشأ يخبرهم فقال : إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« كلُّ سببٍ ونسبٍ منقطعٌ يوم القيامة إلا سببي ونسبي »[1] .

ثم أضاف عمر قائلاً : وكنتُ قد صحبتُ النَّبيَّ ﷺ فأحببتُ أن يكونَ هذا النَّسب بالإضافة إلى الصُّحبة .

* وذكر الطَّبريُّ وابنُ كثير والذَّهبيُّ ـ رحمهم الله ـ أنَّ زواجَ عمر بأمِّ كلثوم كان في ذي القعدة سنة (١٧ هـ) ، وأصدقها عمر أربعين ألفاً ، وكان من ثمرة هذا الزَّواج المبارك أنْ أنجبتْ لعمر ابنه زيداً ، وابنته رقيَّة .

* وعاشت أمُّ كلثوم مع عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، فكانت خير زوجة وخير أمٍّ ، وتألَّقتْ بأعمالها الرَّائعة وصفاتها الكريمة مما جعلها تحيا في قاموس الخالدات أبد الدَّهر .

* وكانت لها مع عمر مواقف وضيئة ومآثر كريمة تشير إلى سَعَةِ عقلها ، وبركة عملها ، وحُسْنِ سلوكها كزوجة وأمٍّ ، وموافقتها عمر في

---

(١) عن الطبقات (٨/٤٦٣ و ٤٦٤) بشيء من التصرف . وانظر القصة في المصادر التالية : الاستيعاب (٤/٤٦٨) ، وأسد الغابة (٥/٦١٤ و ٦١٥) ، والإصابة (٤/٤٦٩) ، والمنمق المبين (ص ١٩٢ و ١٩٣) ، وتاريخ الإسلام (٤/١٣٨ و ١٣٩) وغيرها .

أعمال البر والإحسان ، ولسوف نرى من روائعها ما يجعلها حيّةً في نفوسنا مدى الزّمن .

* * *

أمُّ كلثوم وعدلُ عُمَرَ :

* في حياة أمّ كلثوم بنت عليّ وزوجها عمر مواقف رائعة ، تشهد لها بالعظمة التي فُطر عليها كلّ واحد منهما ، فقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يهتمّ بأمور المسلمين اهتماماً بالغاً ، ويعرف أقدارهم ومكانة كل واحد منهم لدى رسول الله ﷺ ، وخاصة نساء الصّحابة اللواتي قدمن خدماتٍ عظيمة للإسلام والمسلمين ، ولم يكنْ ليفضل زوجه أمّ كلثوم على إحدى السّابقات إلى ساحة الإسلام ، فلكلّ واحدة منهما مكانتها التي لا تُظلم فيها .

* أخرج البُخاريُّ عن ثعلبةَ بنِ أبي مالك ـ رضي الله عنه ـ ، أنّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة ، فبقي مِرط ـ كساء ـ جيّد ، فقال له بعض مَن عنده : يا أمير المؤمنين ، أعطِ هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك ـ يريدون أمّ كلثوم بنت علي رضي الله عنهما ـ .

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : أمُّ سليط ـ رضي الله عنها ـ أحقّ ـ وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ ـ .

قال عمر : فإنها كانت تزفر ـ تخيط ـ لنا القُرب يوم أُحد .

* وبهذا التّصرف الكريم عرف عمر ـ رضي الله عنه ـ قدر

الصَّحابية الجليلة أمّ سليط الأنصاريّة ، وأحسن إليها لقدم صحبتها وحسن بلائها في يوم أُحُد وغيره .

* * *

ابْنَةُ عَلِيٍّ وامْرَأَةُ عُمَر :

* من المشهور أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يعيشُ عيشة الفقراء وكان يدينُ نفسه بهذه العيشة ، ولا يأبى على غيره أنْ يخالفها ، ويقنع باليسير ، وأبى أنْ يعيشَ أفضل مما عاش عليه النَّبيّ ﷺ وخليفته الأول أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ؛ وكثيراً ما تحدث إليه خاصته أنْ يشفقَ على نفسه ويتوسّع في العيش ليكون ذلكَ أقوى له على الحقّ ، فكان يقول لهم : قد علمتُ نصحكم ، ولكنّي تركتُ صاحبيَّ على جادّةٍ ، فإنْ تركتُ جادّتهما لم أدركهما في المنزل .

* ويبدو أنَّ أمَّ كلثوم كانت في بداية حياتها مع عمر ، تودّ لو يميلُ قليلاً إلى الرّفاهية والعيش الهني ، وأنْ يكسوها من الثّياب ما يكسو به الصَّحابة زوجاتهم ، ولكنّ سيّدنا عمر يردّ عليها ردَّ الرَّجل الحكيم الذي يؤثر الآخرة على الدنيا ، عند ذلك ترضى أمّ كلثوم .

* وقد حدث هذا حينما قدم ضيف على عمر ، فأدخله منزله ونادى امرأته فقال : يا أم كلثوم غداءنا ! .

فأخرجت إليه خبزة بزيت في عُرْضها ملح لم يُذَق .

فقال : يا أمّ كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا .

قالت : إنّي أسمع عندك حسَّ رجل .

قال : نعم .

قالت : لو أردتَ أنْ أخرجَ إلى الرّجال ، لكسوتني غير هذه الكسوة كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزّبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته ! .

قال : أوما ترضين ـ أوما يكفيك ـ أنْ يُقال : أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين ! .

ثم قال عمر لضيفه : ادنُ فكُلْ ، فلو كانت راضيةً لأطعمتْك أطيب من هذا[1] .

* ولم يكن عمر ـ رضي الله عنه ـ متقشفاً مع زوجاته فحسب ، ولكنّه كان يعامل جميع أفراد أسرته بالعدل ، فقد دخل يوماً دار ابنه عبد الله ، فوجده يأكل شرائح اللحم ، فغضب وقال له ، ألأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحماً والنّاس في خصاصة ؟ ألا خبزاً وملحاً ، ألا خبزاً وزيتاً ؟ .

* لقد كانت مائدة عمر خالية من أطايب الطّعام ، ولكنّ شخصيّته حافلة بأطايب العظمة ، وجلال العلم ، وكمال التّربية المحمدية . إن عمر ـ رضي الله عنه ـ رجل نشأ في مدرسة النّبوّة بتفوّق ، فكان حقاً عليه أنْ يسلكَ الحقَّ مع أقرب النّاس إليه ، فهل سمع النّاس بمثله ؟ .

* * *

---

(١) عن تاريخ الطبري (٥٥٨/١) ، والبداية والنهاية (١٣٤/٧) بتصرف يسير .

أمُّ كُلثوم وملِكةُ الرُّوم :

* أورد الطَّبريُّ ـ رحمه الله ـ في تاريخه أنَّ أمَّ كلثوم بنت علي ـ رضي الله عنهما ـ ، بعثتْ إلى ملكة الرُّوم بطِيْبٍ ومشارب وأحفاش[1] من أحفاش النِّساء ، ودسَّتْه إلى البريد ، فأبلغه لها وأُخِذ منه ، وجاءت امرأةُ هِرَقْل ، وجمعت نساءها وقالت : هذه هدية ملك العرب وبنت نبيِّهم ، وكافأتها وكافأتها ، وأهدتْ لها ، وفيما أهدت لها عِقْد فاخر .

فلما انتهى به البريد إليه ، أمر بإمساكه ودعا : الصَّلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصلَّى بهم ركعتين وقال : إنَّه لا خير في أمْرٍ أُبرِمَ عن غير شورى من أموري ، قولوا في هدية أهدتها أمّ كلثوم لامرأةِ ملك الرّوم ، فأهدت لها امرأة ملك الروم .

فقال قائلون : هو لها بالذي لها ، وليست امرأة الملك بذمّة فتصانع به ، ولا تحت يدك فتتّقيك .

وقال آخرون : قد كنّا نُهدي الثّياب لنستطيب ، ونبعث بها لتباع ولنصيب ثمناً .

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : ولكنَّ الرَّسولَ رسولُ المسلمين ، والبريد بريدهم ، والمسلمون عظّموها في صدرها .

فأمر بردّها إلى بيت المال ، وردّ على أمّ كلثوم بقَدْرِ نفقتها[2] .

---

(١) « الحُفش » : الدرج تضع فيه المرأة حاجتها ، والجمع أحفاش .

(٢) تاريخ الطبري (٢/٦٠١) .

* لم يكن عمر ـ رضي الله عنه ـ زوجاً محابي على حساب زوجته ، بل كان معلّماً كبيراً لها وللمسلمين ، كما كان صاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبَعْث قواه ، فأيّ أثر باهر يتركه موقف كهذا في فؤاد زوجه أمّ كلثوم ، بل وفي أفئدة النّاس ؟ .

إنّها الطّمأنينة التي غَمَر بها قلوب النّاس على اختلاف طبقاتهم . وظلّ يذكر أنّ أمّ كلثوم ابنة عليّ ، وأنّه عمر ، وأنّ الله عزّ وجلّ هو حسبه وحسبها .

* * *

بَشِّرْ صَاحِبَكَ بِغُلَام :

* إذا كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقضي حوائج المسلمين بنفسه ، فإنّ زوجَه أمّ كلثوم بنت علي ـ رضي الله عنهما ـ لم تكن أقلّ منه رتبةً في هذا الشّأن ، فقد كانت تشدُّ أزره في الخيرات ، وتشركه في تخفيف الألم عن النّاس ، وكيف لا ؟ وهي سليلة بيت النّبوّة الطّاهر ؟! وزوج التّقي عمر ؟ فقد كانت كلّما رُفِعتْ رايةُ خيرٍ تلقّتْها أمّ كلثوم باليمين لتفوز بالأجر والثّواب .

* فتعالوا نحضر ليلة ـ من ليالي المدينة ـ مع هذين العَلَمَيْن تلك الليلة التي حلّقَ كلٌّ واحد منهما عالياً في سماء الفضيلة ، وارتقى سدّة المروءة والنّجدة .

ففي ذات ليلة ، كان عمر في جولة من جولاته يعسُّ بالمدينة المنورة ، والنّاسُ نيام ليطمئن على رعيته ، ويبلو أخبارهم ، ويتعرف أحوالهم ، ويقضي حاجاتهم .

ومرّ عمر بظاهر المدينة ، فإذا هو ببيت شَعْرٍ يلوح وسْطَ الظلام لم يكن في الليلة الغائمة ، فدنا منه فسمع أنينَ امرأة ينبعث من داخل الخيمة ، ورأى رجلاً قاعداً ، فاقترب منه وسلّم عليه ، وسأله : مَن الرَّجل ؟ .

قال : رجلٌ من أهل البادية جئتُ إلى أمير المؤمنين أصيبُ من فضله .

فقال عمر : ما هذا الصَّوت الذي أسمعه داخل الخيمة ؟ .

فقال : انطلقْ يا هذا ـ رحمك الله ـ لحاجتك .

قال عمر : عليّ ذاك ما هو ؟ .

قال الرَّجل : امرأتي جاءها المخاض .. وسأله عمر : هل عندها أحدٌ ؟ .

قال : لا ، فإنّا هنا وحيدان غريبان .

وانطلق عمر مسرعاً حتى أتى منزله ، وقال لامرأته أمّ كلثوم : هل لك في أجرٍ ساقه الله إليك يا أمّ كلثوم ؟ .

قالت : خيراً ، وما هو ؟ .

قال : امرأة غريبة تمخض ، وليس عندها أحد .

فقالت : نعم ، إنْ شئتَ يا أمير المؤمنين[1] .

---

(١) هذه الإجابة تدلُّ على كمال تربية أمّ كلثوم بنت عليّ وحسن منشأها ، كما تدلُّ على حسن معاشرتها لزوجها وطاعتها له ، وعدم الخروج عن رأيه ورغبته فيما يريده من أمر .

فقال : خذي معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدّهن ، وجيئيني ببرمة ـ قِدْر ـ وشحم ودقيق وحبوب .

فجاءت به فقال لها : انطلقي واتبعيني .

وحمل عمر على ظهره البرمة والدّقيق والسّمن ، وحملت أمّ كلثوم حوائجها ومشت خلفه حتى انتهى إلى الخيمة فقال لها : ادخلي على المرأة .

أمّا أميرُ المؤمنين عمر ، فجاء حتى قعد إلى الرّجل وجهّز القِدْرَ ، وقال للرّجل : أوقد لي ناراً ، ففعل ، وأوقد تحت القدر وجعل يصلح الطّعام حتى نضج .

وما هي إلا سويعة حتى ولدت المرأة ، وانبعثَ بكاء الوليد من داخل الخيمة ، فخرجت أمُّ كلثوم وقالت : يا أمير المؤمنين بشّر صاحبَك بغلام .

فلما سمع الرّجلُ بأمير المؤمنين دُهِشَ واستعظم ذلك ، وجعل يتنحّى عنه على استحياء ، وأخذ يعتذرُ إلى عمر ، فقال له : مكانك يا هذا كما أنتَ ، لا بأسَ عليك . ثم حمل القدر فوضعه على باب الخيمة ، ونادى أمّ كلثوم قائلاً : خذي القدرَ وأطعمي صاحبتك .

وبعد أنْ فرغتْ من طعامها ، جعلتِ القدرَ أمامَ باب الخيمة ، فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدَيِ الرّجل وقال له : كُلْ يا أخي فإنّك قد سهرتَ من الليل ، وتعبتَ ، فأكل الرّجل .

ثم نادى عمر زوجته أمّ كلثوم وقال : اخرجي . ثم التفتَ إلى الرّجل

وقال : إذا كان غداً ، فائتنا نأمر لك بما يصلحك إنْ شاء الله تعالى . ففعل الرَّجل ، ووصله عمر وأعطاه وردَّه بما يصلحه إلى أهله ، فانقلب الرَّجل إلى أهله مسروراً[1] .

* وكان سرور أمّ كلثوم عظيماً لهذا الأَجْر الذي ساقه الله إليها ، لأنَّها كانت السَّبب في إدخال السَّعادة إلى قلْبِ امرأة غريبة فاجأها المخاضُ في ساعة لا يعلم بحالها أَحَدٌ إلا الله تعالى . وتابعت أمُّ كلثوم حياتها المعطاء مع عمر رضي الله عنهما ، وهما يعملان على ما يرضي الله عزَّ وجلَّ إلى أن استشهد عمر ـ رضي الله عنه ـ .

* * *

أمُّ كُلْثُوم والحَسَنُ والحُسَيْنُ :

* بعد أن انقضت عدَّة أمّ كلثوم ـ رضي الله عنها ـ ، خطبها سعيد بن العاص فقالت : إنَّ مثلي لا تزوَّجُ نفسها ، فائتِ أهلي .

فأتى أخاها الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ فخطبها فقاربه ، فبعث إليها سعيد بمئة ألف ، وكلّم الحسن أخاه الحسين في هذا فأبى ، ودخل الحسين على أخته وقال : لا تتزوّجيه .

وكان الحسن قد وعد سعيداً وعداً ، فأتاه سعيد فقال : أين أبو عبد الله ـ أي الحسين ـ ؟

قال الحسن : لم يحضر .

---

(١) عن مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ص ٨٤ و ٨٥) ، والبداية والنهاية (٧/١٤٠) بتصرف .

قال سعيد : فلعلّ أبا عبد الله كره هذا ؟!

قال الحسن : نعم .

فقال سعيد : إني أكره أنْ أدخلَ بينكم بشيء تكرهونه ، فرجع ولم يأخذ من المال شيئاً[1] .

* وذكر حسن بن الحسن بن علي ـ ابن أخيها ـ أنها تزوجت عون بن جعفر بن أبي طالب ، وروى زواج عمته أمّ كلثوم فقال :

دخل عليها الحسن والحسين أخواها ، فقالا لها : يا أمّ كلثوم ، إنّكِ ممّنْ قد عرفتِ ، سيّدة نساء العالمين ، وبنت سيّدتهن ، وإنّكِ والله إنْ أمكنتِ أباكِ من رُمّتكِ أنكحك بعضَ أيتامه ، وإن أردتِ أنْ تصيبي بنفسك مالاً عظيماً لتُصيبنّه .

قال الحسن بن الحسن : فوالله ما قاما حتى طلع عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يتكئُ على عصاه ، فجلس فحمد الله عزّ وجلّ ، وأثنى عليه ، وذكر منزلتهم من رسول الله ﷺ وقال :

قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة ، وأثرتكم على سائر ولدي لمكانتكم من رسول الله ﷺ وقرابتكم منه .

فقالوا : صدقتَ ـ رحمك الله ـ فجزاك الله عنّا خيراً .

فقال : أي بنية ، إنّ الله عزّ وجلّ قد جعلَ أمركِ بيدكِ ، فأنا أحبُّ أنْ تجعليه بيدي ، فلم يزل بها حتى زوجها بابن أخيه عون بن جعفر ،

(١) عن نوادر المخطوطات (١/٦٠) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤/٢٢٧) بتصرف يسير .

فأحبّته فماتت عنها ، ثم زوجها بأخيه محمّد بن جعفر فماتت عنها ، ثم زوجها بعبد الله بن جعفر فماتت عنده[1] .

* * *

مِنْ مَوَاقِفِهَا المُؤَثِّرَةِ :

* لما كانت الليلةُ التي أصيبَ فيها سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ ، أتاه مؤذّنه عامر بن النّبّاح حين طلع الفجر يؤذنه بالصّلاة ، فقام يمشي ، فلما بلغ الباب الصّغير ، شدَّ عليه عبد الرحمن بن مُلْجم فضربه ، فخرجت أمُّ كلثوم فجعلتْ تقول : ما لي ولصلاة الصُّبح ، قُتِلَ زوجي عمر صلاة الغداة ، وقتل أبي صلاة الغداة .

* وأُدْخِلَ ابنُ ملجم على سيّدنا عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، فقالت له أمُّ كلثوم : أقتلتَ يا عدو الله أمير المؤمنين ؟ قال : لم أقتل إلا أباك . فقالت : والله إنّي لأرجو أنْ لا يكونَ على أمير المؤمنين بأس . قال : فلم تبكين إذاً ، والله قد سَمَمْتُ السّيف شهراً ، فإنْ أخلفني فأبعده الله وأسحقه ، ولو كانت الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد .

* وأورد أبو علي القالي[2] ـ رحمه الله ـ في « الأمالي » أنّ ابن ملجم

---

(١) عن أُسد الغابة (٥/٦١٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٥٠١ و ٥٠٢) بشيء من التصرف .

(٢) هو إسماعيل بن القاسم : أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب . تعلّم في بغداد وأقام (٢٥) سنة . ثم رحل إلى المغرب فدخل قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطنها . وأخبه الحكم للمستنصر بن الناصر . صنّف « الأمالي » و « النوادر » وغير ذلك . توفي سنة (٣٥٦ هـ) .

لما ضرب عليّاً ـ رضي الله عنه ـ قال : أمّا أنا فقد أرهفتُ السّيف ، وطردتُ الخوف ، وحثثتُ الأملَ ، ونفيتُ الوَجَلَ ، وضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ قتلتهم .

وفي ذلك يقول النّجاشي[1] :

إذا حيّةٌ أعيا الرّقاةَ[2] دواؤها
بعثنا لها تحت الظّلام ابن ملجم

* وتوفي أمير المؤمنين عليّ من أثر الضّربة المسمومة ، وبكته ابنته أمّ كلثوم بكاء شديداً ، وكذلك زوجته أمامة بنت أبي العاص[3] ـ رضي الله عنها ـ ، وقد كانت هاتان المرأتان من أشدّ النّاس حزناً عليه ؛ وقالت أمُّ الهيثم بنت الأسود النّخعية ترثي عليّاً ، وتصور حُزْن أمامة وأمّ كلثوم :

ألا يا عينُ ويحكِ فاسعدينا
ألا تبكي أمير المؤمنينا ؟
أشآبَ ذؤابتي ، وأطالَ حزني
أمامة حين فارقتِ القَرينا

---

(١) النّجاشي : هو قيس بن عمرو بن مالك ، أحد بني الحارث بن كعب ، كان من أشراف العرب ، إلا أنّه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى به عليّ ـ رضي الله عنه ـ وهو سكران في شهر رمضان ، فضربه ثمانين ، وزاده عشرين ، فقال : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ قال : لجرأتك على الله ، وشربك في رمضان ، ولأنّ ولدانا صيامٌ وأنت مفطرٌ . ووقفه للنّاس في تبّان ، فلذلك قال هذا الشّعر .

(٢) « الرّقاة » : مفردها الرّاقي ، وهو صانع الرّقية ، وهي العوذة التي يُرقى بها المريض ونحوه .

(٣) اقرأ سيرة بنت أبي العاص في كتابنا « نساء من عصر النّبوّة » الجزء الثاني .

تطـوفُ بهـا لحـاجتهـا إليـه
فـلمـا استيـأستْ رفعَتْ رنينـا
وعـبرةُ أمّ كلثـوم إليهـا
تجاوبُهـا ، وقـد رأتِ اليـقـيـنـا

* ولأم كلثوم مواقف تشير إلى أنها أفصح نساء قريش ، وأبينهن كلاماً ، وأخطبهن إذا ما ألمّ حَدَث ، أو نزلت نازلة ، وكانت تفحِمُ خصومها بالحجّةِ والبرهان ، كأنما الفصاحة انقادت لها انقيادَ الطِّفْل لأمّه ، وذللتْ لها قطوف البيان حتى كأنها تتكلم وتختار ما تشاء من الكلام ؛ دون تكلف أو عناء ، ومثال ذلك خطبتها الشَّهيرة في أهل الكوفة ، لما قُتل أخوها الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ[1] .

* * *

أمُّ كُلثوم وابنُها زيْدٌ :

* كان زيد بنُ عمر من أشراف قريش وساداتهم ، وكان فتى آتاه الله بَسْطةً في العلم والجسم ، وكان جريئاً لا يهاب أحداً ، ذكر هذا واحد ممن حضره فقال :

وَفَدْنا مع زيدٍ على معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، فأجلسه معه ، وكان زيدٌ أجمل النَّاس ، فأسمعه بُسر بن أرطأة[2] كلمة ،

---

(١) انظر هذه الخطبة في أعلام النساء (٤/٢٥٩ و ٢٦٠) .

(٢) هو بُسْر بن أرْطأة العامري القرشي ، أبو عبد الرحمن : قائد فتاك من الجبارين . ولد =

ونال من جدّه عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، فنزل إليه زيد ، فصرعه ، وخنقه ، وبرك على صدره وقال لمعاوية : إني لأعلمُ أنَّ هذا عن رأيك ، وأنا ابن الخليفتين .

فقال معاوية : أبْعَد الله بُسراً ، أبْعَد الله بُسراً ، أمَا عَلِمَ بُسْر أن زيداً ابن عليّ وعمر ، وأمّ زيد ابنة علي من فاطمة بنتِ رسول الله ﷺ ؟ .

ثم خرج بُسر وقد تشعّثَ رأسه وعمامته ؛ عندئذ اعتذر معاوية إلى زيدٍ ، وأمر له بمئة ألف ، ولعَشْرٍ من أتباعه بمبلغ[1] .

* وتوفي زيد شاباً ، وسبب وفاته أنَّ فتنةً وقعت في بني عديَ ليلاً فخرج زيدٌ ليصلح ذات بينهم ، فضربه رجلٌ منهم في الظّلمة فشجّه وصرعه ، وخرجتْ أمّه وهي تقول : يا ويلاه ، ما لقيتُ من صلاة الغداة ، وذلك أنَّ أباها وزوجها وابنها قُتِلَ كلّ واحد منهم في صلاة الغداة ـ الصّبح ـ ثم وقعتْ عليه فقُبضت هي وابنها في ساعة واحدة .

* وحضر جنازتيهما الحسن والحسين وعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، فقال ابن عمر للحسن : تقدّم فصلِّ على أختِكَ وابن أختك ، فقال الحسن لابن عمر : بل تقدم فصلِّ على أمّك وأخيك .

= بمكة قبل الهجرة ، وأسلم صغيراً . وروى عن النبي ﷺ حديثين في مسند أحمد ، ثم كان من رجال معاوية بن أبي سفيان . وشهد فتح مصر . وولاه معاوية البصرة بعد مقتل علي وصلح الحسن ، ثم ولاه البحر فغزا الروم سنة (٥٠ هـ) . توفي سنة (٨٦ هـ) .

(١) عن ربيع الأبرار للزمخشري (٥/٣٠٤) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٥٠٢) بتصرف يسير .

* فتقدّم ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، فجعل زيداً مما يليه ، وأمّ كلثوم وراءه ، فصلّى عليهما وكبّر أربعاً ، وخلفه الحسن والحسين ـ رضي الله عنهم ـ .

* وكانت وفاةُ أمّ كلثوم بنت عليّ ـ رضي الله عنهما ـ في خلافة سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ حسبما ذكر الذّهبي [1] ذلك .

* رحم الله أم كلثوم ورضي عنها ، وستظلّ أمُّ كلثوم قدوة للنّساء الفاضلات على مدى الأيام والأعوام .

* وقبل أنْ نودّع سيرتها المعطار ، تعالوا نذكر لها هذه الفضيلة ، وهي المرأة القرشيّةُ التي شهد أبوها وجدُّها وزوجها بدراً .

فجدها رسول الله ﷺ .
وأبوها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .
وزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
وكلّهم شهدوا بدراً .

وهذه منقبةٌ لأمّ كلثوم بنت علي لم تتوفر لامرأة قرشيّة غيرها ؛ فرضي الله عنها وأرضاها .

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٥٠٢/٣) . وقد ورد في بعض المصادر أنّ الذي صلى على زيد وأمّه ، أمير المدينة المنورة وقتذاك سعيد بن العاص ، وفي الناس : ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وأبو قتادة رضي الله عنهم . انظر مثلاً كتاب المعرفة والتاريخ (٢١٤/١) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

سَودة بنت عمارة

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٢)

سَودة بنت عمارة

* تابعية ، فصيحة ، شاعرة ، من أنصار علي بن أبي طالب ، وفدت على معاوية في شكوى لها ولقومها فأنصفها .

سَودَةُ بنْتُ عمَارَةَ

الخَطِيبَةُ الشَّاعِرَةُ :

* جمعت سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية[1] جمال الشِّعر وبيانه ، إلى جانب الفصاحة والخطابة والبلاغة ، واشتهرتْ ـ في عصر التَّابعين ـ بثبات الجنانِ ، والشَّجاعة في ميدان القتال ، ومنازلة الفرسان .

* وكانت في خطابتها تنبئُ عن حضور البديهة ، وقوة العارضة ؛ أمَّا شِعْرُها فكان يفور فوران المِرجل ، ويحفل بكلِّ عاطفة وقَادةٍ تحمل كلَّ الحبِّ لبني هاشم ؛ أولئك الذين هم مهبط الوحي ، وشعبة الهدى ، وأئمة البيان ، وهم الذين وصفهم مسلم بن بلال العبديّ بقوله : أولئك قومٌ بنورِ الخلافةِ يشرقون ، وبلسانِ النُّبوَّةِ ينطقون[2] .

* وكانت سودةُ بنتُ عمارة من نساء عصر التَّابعين ، ممن كن ينظرن إلى سيِّدنا عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ نظرة إكبار وإجلال ، فقد كانت من أنصارهِ قولاً وعَمَلاً ، ومن جنوده البواسل في « صفين » مع أخيها الذي كان من الأبطال الأشدَّاء في ذلك اليوم ، وكان لأخيها مقامٌ

---

(١) أعلام النساء (٢/٢٧٠) ، وشاعرات العرب (ص ١٧٣) وفيهما ابنة الأشتر بدلاً من الأسك .

(٢) زهر الآداب للحصري القيرواني (٢/٦٣) .

لا ينسى إذ عُرف بالشَّجاعة والإقدام ، كما عُرف بالفصاحة والبيان أيضاً .

* ولعلَّ سودة بنتَ عمارة ـ رحمها الله ـ قد أخذت عن بني هاشم نصاعة بيانهم ، ومضاء حجتهم ، وسمو أدبهم ، فقد جمعوا مع كرم الأرومة والأصل إمْرة البيان ، وزمام العلم ، وقد ورثه الأبناء عن الآباء .

شَرَفٌ تسَلْسَلَ كابراً عن كابرٍ
كالرُّمح أنبوباً على أنبوب

* * *

بَيْنَ يَدَي مُعَاوِيَةَ :

* ترسمُ أخبار هذه التَّابعية صورةً صادقةً عن دور المرأةِ في عصر التَّابعين ، كما تعطي ملامحَ واضحةً للحياة الاجتماعيةِ والسِّياسة عصر ذاك .

* وفي أخبار سودة نجدُ جرأتها في الدِّفاع عن حقِّها ، ومشاركتها في التَّعبير عن رأيها وتصريف شؤونها ، كما نجد علو همَّتها ومضاء عزيمتها ، إذ أنَّها تجشمت عناء السَّفر ، وأتتْ من بلادها البعيدة ـ اليمن ـ إلى مقرِّ الخلافة ، فقدمت على معاوية ودخلت عليه بدمشق في شأنٍ من شؤونها الخاصة وشؤون قومها جميعهم ؛ فقد قابلت معاوية ـ رضي الله عنه ـ متظلمةً من واليه على اليمن ، وأسمعته من بليغ قولها ونصاعة الشِّعر ما جعله يرفع عنها الجور الذي لحقها ، ولما ذكّرها سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ لم نجدْها مضطرةً إلى كلمةِ نفاقٍ واحدة ، أو

تلجلج لسانها ، بل أظهرت رأيها ومكنون نفسها بكلّ جرأة وصراحة تدلان على نظرتها السّليمة لما تقول ، وبعد هذا أكرمها وأعادها بكتاب عزل فيه واليه عن اليمن .

* ولنبدأ القصة من أوّلها ، فقد حدّثَ الإمام الشّعبيُّ ـ رحمه الله ـ فقال :

استأذنتْ سودةُ بنت عمارة بن الأسك الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، فأذن لها ، فسلّمتْ فردَّ عليها السّلام ، ثم قال لها : هيه ، يابنت الأسك ، كيف أنتِ ؟

قالت : بخير ـ والحمد لله ـ يا أمير المؤمنين .

فقال لها : ألستِ القائلة لأخيك يومَ صِفّين[2] :

شمّر كفعلِ أبيك يا بن عمارة
يوم الطّعان وملتقى الأقْرانِ
وانصُر عليّاً والحسين ورهطه
واقصد لهندٍ وابنِها بهوانِ

---

(١) الشّعبيُّ : عامرُ بنُ شراحيل بن عبد ذي كبار الشّعبيّ الحميريّ ، أبو عمرو ، راوية من التّابعين ، يُضربُ المثل بحفظه ، ولد بالكوفة سنة (١٩ هـ) وكان نديماً لعبد الملك بن مروان ، وهو من رجال الحديث الثّقات ، استقضاه عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان فقيهاً شاعراً ، وأخباره كثيرة جداً ، توفي بالكوفة سنة (١٠٣) وله (٨٣) سنة رحمه الله تعالى (الأعلام : ٢٥١/٣) .

(٢) « صِفّين » : بكسر الصاد والفاء المشددة . موضع معروف بقرب الفرات بين الرقة وبالس . (تهذيب الأسماء واللغات : ١٨١/٣) .

إنَّ الإمـــامَ أخـــو النَّبـــيِّ محمّـــد
عَـــلَم الهـدى ، ومنـــارة الإيمـــانِ
فَقْـــدِ الجيـــوشَ ، وسِـــرُّ أمـام لوائه
قُـدُمـاً بـأبيـضَ صـــارم وســـنـانِ

فأجابت دون تردد أو وَجَل : أنا القائلة هذا يا أمير المؤمنين ، وما مثلي مَنْ رغب عن الحقّ ، ولا أعتذر إليك بالكذب .

قال : فما حملكِ على ذلك ؟

قالت : حبُّ عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ ، واتباع الحقّ .

قال : واللهِ ـ يا ابنة الأسك ـ ما أرى عليك من أثر عليٍّ شيئاً .

فقالت سودة : أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكار ما قد نُسي .

فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ : هيهات هيهات ! ما مثل مقام أخيك يُنسى ، ولا لقيتُ من أحدٍ ما لقيتُ من قومك وقوم أخيك .

قالت : صدق فوك يا أمير المؤمنين ، والله لم يكن أخي ذميم المقام ، ولا خفي المكان ، كان واللهِ كقول الخنساء :

وإنَّ صخـــراً لتـــأتمُّ الهـداةُ بـــه
كأنَّـــه عـــلَمٌ في رأســـهِ نـــارُ

ثم قالت : بالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه .

قال : قد فعلت ، وحبّاً وكرامة .

شكوى وتوجع :

* بعد أنْ توقفت المحاورةُ بين معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وسودة ـ رحمها الله ـ ، ـ وكان قد أُعجب ببلاغتها وشجاعتها ـ توجَّه إليها وسألها فقال : ما حاجتُك يا ابنة الأسك ؟ قولي ما تريدين .

عندئذ بدأت سودة تشكو عامله والحزنُ بادٍ على وجهها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحتَ للنّاس سيّداً ، ولأمورهم متقلّداً ، والله عزّ وجلّ سائلُكَ عن أمرنا ، وعمّا افترض عليك من حقّنا ، ولا يزال يقدم علينا من ينهضُ بعزّك ، ويبطشُ بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السّنبل ، ويدوسنا دِيَاسَ البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا بُسْر بن أرطأة ، قدم بلادي فقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعةُ لكان فينا عزٌّ ومنعة ، فإمّا عزلته عنّا فشكرناك وإمّا لا فعرفناك .

فقال معاوية : يا هذه ، أتهدّدينني بقومك ؟! والله لقد همتُ أنْ أردّك إلى بُسْر على قَتَب أشرس [1] ، وأحملك إليه فينفّذُ فيك حُكْمه .

عندئذٍ أطرقت سودة ، وهجمت الدُّموع من عينيها ، وتدحرجت على وجهها ، ثم رفعت رأسها ، وأنشأت تقول :

صلّى الإلهُ على روحٍ تضمّنها
قبرٌ فأصبح فيه العدلُ مدفونا
قد حالف الحقَّ لا يبغي به بدلاً
فصار بالحقّ والإيمان مقرونا

---

(١) « القتب » : إكاف البعير ؛ و « الأشرس » : الخشن الخليط ـ يعني لحملها على بعير هذه صفته ـ .

فقال لها معاوية : ومَنْ ذلك ؟

قالت : عليُّ بن أبي طالب ـ رحمه الله ورضي عنه ـ .

قال : ما أرى عليك منه أثراً ، فما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟

قالت : أتيتُه يوماً في رجل قد ولّاهُ على صدقاتنا ، لم يكن بيننا وبينه إلا كما بين الغثّ والسّمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فلما نظر إليَّ انفتل من مصلاه ، ثم قال لي برأفةٍ وتعطف : ألكِ حاجة ؟

فأخبرته خبر الرّجل ؛ فبكى ـ رضي الله عنه ـ ثم رفع يديه إلى السّماء فقال :

اللهم أنت الشّاهد عليَّ وعليهم ، إنّي لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترْكِ حقّك .

ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيل ﴿ والميزان بالقسط ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقيّتُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : ٨٤ و ٨٥] إذا قرأت كتابي هذا فاحتفظْ بما في يديك من عملنا حتى يأتي مَنْ يقبضه منك والسّلام .

فأخذته منه ، والله ما ختمه بطين ، ولا خزمه بخزام ، فعرلتُهُ به .

* * *

مُعاويةُ ينصفُ سَوْدَةَ :

* بعد أنْ سمعَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ ، التفت إلى كتّابه وقال لهم : اكتبوا لها بإنصافها ، وردّ ما لها ، والعدل عليها .

فقالت سودة : يا أمير المؤمنين ، ألي هذا خاصة ، أم لقومي عامة ؟

قال : ما أنتِ وغيرُك ؟

قالت : هي والله إذاً الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا فأنا والله كسائر قومي يسعني ما يسعُهم !

فقال معاوية متعجباً : هيهات هيهات ! لقد لَعَظكم ـ ذوّقكم وعوّدكم ـ ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الجرأة على السُّلطان ، فبطيئاً ما تقطمون بغيره ، وعزكم قوله :

فلو كنتُ بوّاباً على باب جنّةٍ
لقلتُ لِهَمْدان ادخلوا بسلام

اكتبوا لها بحاجتها وحاجات قومها .

ثم ردُّها إلى اليمن معززةً مكرمة تلهج بالثّناء عليه .

* وبعد ، فهذه سودة بنت عمارة الهمدانية ، إحدى النّساء التّابعيات اللاتي وَعاهُنَّ التّاريخ ، وتركن أثراً خالداً في صفحات النّساء الخالدات .

* رحم الله سودة ، وجعل وجهها أبيضَ يوم تبيضُّ وجوه وتسود وجوه ، إنّه كريم رحيم .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

صفية بنت أبي عبيد

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٦)

صفية بنت أبي عبيد

• قال العجلي :

صفية بنت أبي عبيد : مدنية ، تابعية ، ثقة .

• وقال ابن كثير :

كانت صفية بنت أبي عبيد من الصالحات العابدات ، وهي زوجة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله مكرماً ومحباً لها في حياته ـ رضي الله عنه ـ .

صَفيَّةُ بِنْتُ أَبي عُبَيْد

الصَّالِحَةُ زَوْجُ التَّقِيّ :

* صفيةُ بنت أبي عُبيد بن مسعود الثَّقفيّة[1] ، زوج عبد الله بن عمر بن الخطاب ، الإمام القدوة شيخ الإسلام ، أبي عبد الرحمن القرشيّ العدويّ .

* وصفيةُ بنت أبي عبيد إحدى النِّساء التَّابعيات الصَّالحات العابدات ؛ ممن جمعن الفضل من جميع أطرافه ، وكانت من خيرة الزَّوجات اللاتي يُعِنَّ أزواجهن على المضيّ في طاعة الله عزَّ وجلَّ ، وقد اقتبستْ من أخلاق زوجها وهديه ما جعلها من عِلْيةِ نساء عصرِ التَّابعين .

* فقد كان زوجها ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يَسْرُدُ الصَّوم[2] ،

---

(١) الطبقات (٤٧٢/٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٣٨/٣) ، وتهذيب التهذيب (٤٣٠/١٢) . أمَّا أبو صفيَّة فهو : أبو عُبيد بن مسعود بن عمرو الثَّقفيّ ، أسلم في عهد رسول الله ﷺ ، واستعمله عمر ـ رضي الله عنه ـ سنة (١٣ هـ) ، وسيَّره على جيش كثيف إلى العراق ؛ وإليه يُنسب جسر أبي عبيد ، وكانت الوقعة عند الجسر ، وقتل يومئذ أبو عبيد شهيداً مع ثمانمئة من المسلمين ، والجسر بين القادسية والحيرة ، وأخبار شجاعته مشهورة ، رحمه الله .

(٢) سرد الصيام هو متابعته والمداومة عليه . وقد نهى النبي ﷺ عن الوصال في الصيام =

وهو أحد الصَّحابة السَّاردين للصَّوم منهم : عمر وابنه ، وأبو طلحة الأنصاري ، وحمزة بن عمرو ـ رضي الله عنهم ـ .

* ومن النِّساء السَّاردات للصَّوم عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

* وعبد الله بن عمر أحد السَّبعة الذين هم أكثر الصَّحابة الكرام رواية عن النَّبي ﷺ وهم :

أبو هريرة رضي الله عنه روى (٥٣٧٤) حديثاً .

ثم ابنُ عمر رضي الله عنه روى (٢٦٣٠) حديثاً .

ثم أنسُ بن مالك رضي الله عنه روى (٢٢٨٦) حديثاً .

ثم عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها روت (٢٢١٠) أحاديث .

ثم عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه روى (١٦٦٠) حديثاً .

ثم جابرُ بن عبد الله رضي الله عنه روى (١٥٤٠) حديثاً .

ثم أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه روى (١١٧٠) حديثاً .

* وزوجها كذلك أحد العبادلة الأربعة من الصَّحابة الكرام ؛ أولي الفضل والفضائل ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

= رحمةً بالنَّاس وإبقاء عليهم ، فقال ﷺ : « لا تواصلوا ، فأيكم إذا أراد أن يُواصل فليواصلْ حتى السَّحر » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ! قال : « إني لستُ كهيئتكم ، إني أبيتُ لي مُطْعِم يُطعمني وساقٍ يسقين » . رواه البخاري (١٩٦٣) . أي يعطيني قوة الأكل والشارب ، ويفيض عليّ ما يسدّ مسدّ الطعام والشراب .

وأفضل الصيام صوم داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويُفطر يوماً ، أي صام نصف الدهر . انظر البخاري (١٩٧٩) و (١٩٨٠) .

الرَّاويةُ الثِّقةُ :

* في كتابه النَّفيس « الثِّقات » ذكرها ابنُ حبّان ، وعدّها من راويات الحديث الثِّقات ؛ اللاتي يؤخذ عنهن الحديث الشَّريف .

* وقال عنها العجلي : صفيةُ بنت أبي عبيد مدنيّةٌ تابعيّةٌ ثِقة .

وصفية ـ رحمها الله ـ رأتْ سيّدنا عمر بن الخطاب ، وروتْ عنه ، ولها معه أخبار ، كما رأتْ ثلاثاً من أمّهات المؤمنين وروت عنهن ، وهن : عائشة بنت الصّدّيق ، وحفصةُ بنت عمر ، وأمُّ سلمة رضي الله عنهن . كما روتْ عن القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصديق[1] .

* وقد روى عن صفيّة جماعة من أكابر التّابعين وثقاتهم ، وممن عرفوا بالعلم والفضل بين أقرانهم منهم : ابن زوجها سالم بن عبد الله بن عمر ، ونافع مولى زوجها ، وعبد الله بن دينار ، وعبد الله بن صفوان بن أمية ، وموسى بن عقبة[2] وغيرهم .

---

(١) أحد فقهاء المدينة السّبعة وهم : سعيد بن المسيّب المخزوميّ (٩٤ هـ) ، عروة بن الزّبير (٩٤ هـ) ، أبو بكر بن عبد الرحمن (٩٤ هـ) ، القاسم بن محمّد (١٠٦ هـ) ، عبيد الله بن عبد الله (٩٨ هـ) ، خارجة بن زيد (١٠٠ هـ) ، وسليمان بن يسار (١٠٧ هـ) ، وقد نظمهم محمد بن علان الصّديقيّ الشّافعيّ صاحب كتاب « دليل الفالحين لطرق رياض الصّالحين » فقال :

عبيدُ الله ، خارجةٌ ، وعروةُ ... أبو بكر ، سعيدٌ ، ثم سالمْ
سليمانٌ ، هو فقهاء طيبةٌ ... بعهد التّابعين أولي المكارمْ

وكان بعض العلماء يعد سالم بن عبد الله بن عمر من الفقهاء السّبعة ، وقد ذكره ابن علان بدلاً من القاسم بن محمد .

(٢) موسى بن عقبة بن أبي عيّاش الأسديّ التّابعيّ ، أبو محمّد ، مولى آل الزّبير ، روى =

* وقد روى لها الإمام مسلم في صحيحه ، وروى لها أبو داود والنَّسائي في سننهما .

* ومن مروياتها ما روته عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، عن النَّبيِّ ﷺ : « لو نجا أحدٌ من ضَمَّةِ القَبْرِ لنجا منها سعد[1] » .

* ومما يشبه هذا ما رواه نافع عنها قال : أتينا صفيَّةَ بنتَ أبي عبيد ، فحدثتنا أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إن كنتُ لأرى لو أنَّ أحداً أُعْفِيَ من ضغطة القبر لعفي سعد بن معاذ ولقد ضُمَّ ضَمَّةً[2] » .

* وعن موسى بن عقبة عن نافع قال : أخبرتني صفية بنت أبي عُبيد أنَّها سمعتْ عمر بن الخطاب يقرأ في صلاة الفجر سورة أصحاب الكهف[3] .

* * *

زَوَاجُهَا وصَدَاقُهَا :

* ذكر الإمامان الجليلان الطَّبريُّ وابنُ كثير رحمهما الله ، أنَّ عبدَ

= عن عدد من الأكابر ، وروى عنه عدد من كبار علماء التَّابعين أيضاً . قال ابن سعد : كان ثقةً ثبتاً ، وكان عالماً بالسِّيرة النَّبوية ، وهو من أهل المدينة ، له كتاب « المغازي » . قال عنه الإمام أحمد : عليكم بمغازي الرجل الصَّالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي . وقد وثَّقه ابن معين وأبو حاتم ، وكان موسى فقيهاً محدثاً من أهل الفتوى ، وذكره ابن حبان في الثِّقات . توفي بالمدينة المنوَّرة سنة (١٤١ هـ) رحمه الله تعالى . (تهذيب التهذيب : ١٠/٣٦٠ ـ ٣٦٢) .

(١) سير أعلام النبلاء (١/١٩١) وسعد : هو سيِّدنا سعد بن معاذ الأنصاري الأشهلي رضي الله عنه .

(٢) مجمع الزوائد (٣/٥٠) .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/٤٧٢) .

الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ تزوّج صفيّةَ بنتَ أبي عبيد في حياةِ أبيه عمر ، وذلك في سنة (١٦ هـ) .

* وذكر ابنُ عمر قال : أصدق عني ـ أبي ـ عمر بن الخطاب صفية بنت أبي عبيد أربعمئة درهم ، وزدتُ أنا سِرّاً مئتين .

* وحدث نافع ـ رحمه الله ـ قال : تزوَّجَ ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ صفيةَ بنت أبي عبيد على أربعمئة درهم ، فأرسلت إليه : إنَّ هذا لا يكفينا ، فزادها مئتين سِرّاً من عمر .

* وقد بارك الله سبحانه وتعالى في هذا الزَّواج الطَّيِّب ، فأثمر عن نسماتٍ طيّبةٍ كريمةٍ ، إذ ولدت لعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ خمسة ذكور ؛ كانوا من أعلام العلماء وهم : أبو بكر ، أبو عبيدة ، واقد ، عبد الله ، وعمر ؛ كما ولدت له من الإناث حفصة وسَوْدة[1] .

* وقد أحسنتْ صفيّة ـ رحمها الله ـ تربية أولادها وبناتها ؛ ليسيروا على هدي الأُسرة العُمريّة ، ولهذا كان زوجها يجلّها ويحترمها ويُنزلها من قلبه مكاناً رحباً ، وقد شهد لصفية بالتُّقى والصَّلاح الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ إذ قال : كانتْ صفيّة بنت أبي عبيد من الصَّالحات العابدات ، وهي زوجة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله لها مكرماً ومحبّاً في حياته[2] ـ رضي الله عنه ـ .

* * *

---

(١) الطبقات (٤/١٤٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٢٣٨) .

(٢) البداية والنهاية (٨/٢٩٢) .

عُمَرُ وصَفِيَّةُ :

* كان سيِّدُنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يجلُّ زوجةَ ابنه صفية ويقدّرها ، وكان ينزلها المكانة التي تستحق ، ولا يمكن له أنْ يؤثرها عمن هي أكبر شأناً منها ؛ لقرابتها منه أو لمكانتها ومكانة أبيها أو حتى ابنه عبد الله ؛ ولكنّه كان يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ففي سنة (١٦ هـ) وفي بداية زواج صفية ، فتح الله عزَّ وجلَّ على المسلمين ، وغنموا بعض الغنائم من البلاد التي فتحوها في المشرق ، وأُتي بالغنائم إلى المدينة المنورة ، وأُتي عمر ـ رضي الله عنه ـ بمروط ، وكان فيها مِرْط[1] جيد واسع .

فقال بعض الحاضرين عند عمر ـ وقد أُعْجِبَ بالمِرط ـ ، إنَّ هذا المرط لثمنُ كذا وكذا ، فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد ، وذلك جدّتان ـ أول زواجها ـ ما دخلتْ على ابن عمر ، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ :

أبعثُ به إلى مَنْ هو أحقّ به منها ، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب ـ رضي الله عنها ـ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد : « ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني »[2] .

---

(١) « المرط » : كساءٌ غير مخيط من صوف أو خز يؤتزر به ، وكانت النساء ـ عصر ذاك ـ تلبس المرط ؛ والجمع مروط .
وروت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كانت النساء تنصرف من صلاة الصُّبح ملتفعات بمروطهن .
وروى ابن سعد في « الطبقات » والشّافعي في « المسند » أن رسول الله ﷺ قام في ليلة باردة فصلى في مرط امرأة من نسائه .

(٢) الطبقات (٨/٤١٥) ، والمغازي (١/٢٧١) ، وأنساب الأشراف (١/٣٢٥ و ٣٢٦) ، وحياة الصحابة (٢/٨٧ و ٨٨) .

مِنْ أخبارِ صَفِيَّةَ وزَوْجِها :

* لصفيةَ بنتِ أبي عبيد ـ رحمها الله ـ أخبارٌ وضيئةٌ مع زوجها ابن عمر ، وأخبارها تدلُّ على مكانتها وفضلها ، من ذلك ما أورده الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ قال :

أعطى عبد الله بن جعفر ابن عمر بنافع[1] عشرة آلاف ، فدخل على صفية امرأته فحدَّثها ، قالت : فما تنتظر ؟

قال : فهلاّ ما هو خيرٌ من ذلك ، هو حُرٌّ لوجه الله[2] .

* وكان ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يتلو قول الله عزَّ وجلَّ في الذِّكْرِ الحكيم : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

وكان ابن عمر يحبُّ مولاه نافعاً ولا يقدِّمُ عليه أحداً قطّ .

* وكانت صفيةُ تقدِّمُ لزوجها كل خير ، وتقوم على خدمته أحسن قيام وأفضله ، ذكر نافع ـ رحمه الله ـ حُسْنَ رعايتها لزوجها فقال :

مرض ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، فاشتهى عنباً أول ما جاء ، فأرسلت امرأته ـ صفية ـ بدرهم ، فاشترت به عنقوداً ، فاتَّبع الرَّسول سائلٌ ، فلما دخل قام السَّائل على الباب ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه .

---

(١) نافع : أبو عبد الله المدني ، مولى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، ثقةٌ ثبتٌ فقيهٌ مشهور ، مات سنة (١١٧ هـ) رحمه الله . (تقريب التهذيب : ٢/٢٩٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٢١٧ و ٢١٨) .

ثم بعثتْ بدرهم آخر ، فأتبعه السَّائل ، فلما دخل وقف السَّائل ثانيةً ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأعطوه .

وتكررتِ الحادثةُ ثلاث أو أربع مرات ، فأرسلتْ صفيَّةُ إلى السَّائل تقول : والله لئن عُدْتَ ، لا تصيب مني خيراً ؛ ثم أرسلتْ بدرهم آخر فاشترت به ، ومن ثم أكله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ[1] .

* * *

صَفِيَّةُ وَدُرُوسٌ فِي السَّخَاء :

* كان صحابةُ رسول الله ﷺ ينفقون الأموال ، وما أعطاهم الله عزَّ وجلَّ في سبيله ، وفي المواقع التي ترضيه . وكان الإنفاقُ أحبَّ إليهم من كلِّ شيء ، وابن عمر عليه سحائب الرضوان واحد من الأجواد الأخيار ، إذ كان يمنعُ نفسه ليعطي الفقراء ، معلِّماً بذلك زوجه صفية دروس الكرم والإنفاق والبذل في ذات الله عزَّ وجلَّ .

* روى سعيدُ بن أبي هلال أنَّ عبدَ الله بنَ عمر ـ رضي الله عنهما ـ نزل الجُحفة[2] وهو شاكٍ ـ مريض ـ فقال : إنِّي لأشتهي حيتاناً ـ سمكاً ـ فالتمسوا له فلمْ يجدوا إلا حوتاً واحداً ، فأخذته امرأته صفية بنت أبي عبيد ، فصنعته ثمَّ قربته إليه ، فأتى مسكينٌ حتى وقف

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٢٢٠) بتصرف يسير جداً .

(٢) « الجحفة » : ميقات أهل الشام ومصر والمغرب ، وهي قرية كبيرة كانت عامرة على طريق المدينة على نحو سبع مراحل من المدينة ، ونحو ثلاث مراحل من مكة ، وهي قريبة من البحر ، ومن هذا المكان يحرم الحجاج . (تهذيب الأسماء واللغات : ٣/٥٨) .

عليه ، فقال له ابن عمر : خذه .

فقال أهله ـ امرأته ـ : سبحان الله! قد عنّيتنا ـ أتعبتنا ـ ومعنا زاد نعطيه .

فقال : إنَّ عبد الله يحبُّه .

فقالت صفيةُ : نعطيه درهماً فهو أنفع له منْ هذا ، واقْضِ أتتَ شهوتكَ منه .

فقال : شهوتي ما أريد[1] .

* وبهذا الدَّرس اللطيف علَّم ابن عمر صفية أنَّ إطعام المساكين من أعلى وأرفع أنواع الفضائل ، كما علَّمها أنَّ تربيةَ النَّفس تحتاج إلى حَجْبِ ما تشتهيه ، فهذا أقربُ للتقوى والبرُّ عند الله عزَّ وجلَّ .

* وقد كان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لا يأكلُ طعاماً إلّا وعلى خوانه يتيم أو مسكين ؛ حتى أضرَّ ذلك بجسمه ، وحتى أنَّ صفيَّة عوتبتْ فيه ، فقيل لها : أما تلطفين ـ تبرّين ـ بهذا الشيخ ؟ .

فقالت : فما أصنعُ به ؟ لا نصنعُ له طعاماً إلا دعا عليه من يأكله . فأرسلتْ إلى قومٍ منَ المساكين كانوا يجلسون في طريقهِ إذا خرج من المسجد ، فأطعَمَتْهم وقالت لهم : لا تجلسوا بطريقهِ . ثم جاء ـ ابن عمر ـ إلى بيته : فقال : أرسلوا إلى فلان وإلى فلان ، وكانتِ امرأته أرسلتْ إليهم بطعام وقالت : إنْ دعاكم فلا تأتوه .

---

(١) الحلية (١/٢٩٧) ، وصفة الصفوة (١/٢٩١) .

فقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : أردتم أنّ لا أتعشى الليلة ، فلم يتعشَ تلك الليلة[1] .

* وأخرج أبو نُعيم في « الحلية » عن حمزةَ بنِ عبد الله بن عمر قال : لو أنَّ طعاماً كثيراً كان عند عبد الله بن عمر ، ما شبع منه إلا بعد أن يجد له آكلاً ، فدخل عليه ابن مطيع يعوده ، فرآه قد نحل جسمه ، فقال لصفيّة : ألا تلطفيه ؟ لعلّه أن يرتدَّ إليه جسمه فتصنعي له طعاماً ؟! .

قالت : إنّا نفعل ذلك ، ولكنّه لا يدع أحداً من أهله ولا مَنْ يحضره إلا دعاه عليه ؛ فكلّمتْهُ أنتَ في ذلك ! .

فقال ابنُ مطيع : يا أبا عبد الرحمن ، لو اتخذتَ طعاماً فرجع إليك جسمك .

فقال : إنّه ليأتي عليَّ ثماني سنين ما أشبع فيها شبعة واحدة ، فالآن تريد أنْ أشبعَ حين لم يبقَ من عمري إلا ظِمءَ حمار[2] .

* * *

وَداعاً زَوْجَ النَّقيِّ :

* أوردتِ المصادرُ أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، آخر من توفي بمكة من الصَّحابةِ ،وكانت وفاته في سنة (٧٣ هـ) .

---

(١) الحلية (١/٢٩٨) ، وصفة الصفوة (١/٢٩٣) .

(٢) أراد ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ من قوله : إنّه لم يبق من عمري إلا يسير ، وقوله « ظمء الحمار » : كناية عن الشيء اليسير ، لأنّ الحمار أقلّ الدوابّ صبراً عن الماء . والعرب تستخدم كثيراً من مثل هذه العبارات في كلامها .

* أمّا صفيةُ بنتُ أبي عبيد زوجه فلا ندري بالتّحديد متى كانت وفاتها ، إلا أنَّ الدّلائل تشيرُ إشارةً واضحةً إلى أنّها توفيتْ بعد زوجها بزمن ، بدليل ما ذكره الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في الموطأ عن نافع : أنَّ صفية بنت أبي عبيد اشتكتْ عينها وهي حادٌّ على زوجها عبد الله بن عمر ، فلم تكتحل حتى كانت عيناها ترمصان[1] .

* وفي هذا دليل على أنّها قد عاشت بعد سنة (٧٣ هـ) ، أي بعد وفاة زوجها مدة من الزّمن ؛ حتى بلغت من الكبر عتياً ، واشتعل رأسها شيباً ، وأضحت طاعنة في السِّنّ ، فقد أخرج ابن سعد عن فُليح بن نافع ـ ما يتوافق مع هذا ـ فقال : كانت صفية عجوزاً ، فكانت تطوف بين الصَّفا والمروة على راحلة .

* وبعد ، فهذه صفية بنت أبي عُبيد ، المرأةُ القدوة ، والأمُّ الكريمة ، والزّوج العطوف ، وبمثلها فلتقتدي النّساء ؛ رحمها الله .

* * *

---

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ (٥٩٩/٢) في الطّلاق ، باب : ما جاء في الإحداد . ويقول الفقهاء في المرأة يتوفى عنها زوجها :
إنّها إذا خشيتْ على بصرها من رَمَدٍ يعيبها أو شكوى أصابتها فإنّها تكتحل ، وتتداوى بالكحل ، لأنَّ القصد إلى التّداوي لا إلى التّطيب ، وإنّما الأعمال بالنيات . وقد نُهيت المرأةُ الحادّة عن الزّينة لا عن التّداوي . والله أعلم .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

عاتكة بنت يزيد

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٤)

عاتكة بنت يزيد

• تابعية ، محارمها اثنا عشر خليفة ، راوية للحديث النبوي الشريف ، سخية بمالها ، محسنة إلى الفقراء ، من المعمرات .

عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيْد

بَيْنَ الخِلَافَةِ والخُلَفاء :

* نشأتْ ؛ ونشأ معها نصيبُها من عزّةِ الجانب ، وحرمة الرأيّ ، وشرف النّفس ، ومضاء القلب ، وسناء المنزلة ، حتى كادت تكون متفرّدةَ المنزلةِ بين نساء الخلفاء على مرّ العصور .

* حدّثوا فقالوا : إنّها كانت تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة ، كلّهم لها مُحْرِم .

* أبوها : يزيدُ بنُ معاوية بن أبي سفيان .

* وأخوها : معاويةُ بن يزيد بن معاوية .

* وجدُّها : سيدنا معاويةُ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ .

* وزوجُها : عبدُ الملك بن مروان .

* وأبو زوجها : مروانُ بن الحكم .

* وابنُها : يزيدُ بن عبد الملك .

* وبنو زوجها : الوليدُ ، وسليمانُ ، وهشامُ .

* وابنُ ابنها : الوليدُ بن يزيد .

* وابنُ ابن زوجها : يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك .

* وابنُ ابن زوجها أيضاً : إبراهيم بن الوليد المخلوع .

* هذه المرأة التي عاشت في عصر التَّابعين قيل عنها : إنّها أعرق النِّساء في الخلافة ، لأنَّ محارمها اثنا عشر خليفة ، وفوق هذا وذاك ، كانت من فضليات نساء عصرها علماً وأدباً وكرماً ، وجمعت من كلّ فضيلة بطرف ؛ هذه المرأة الفريدة هي : عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأمويّة القرشيّة .

وأمّها : أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كُريز .

وزوجها : عبدُ الملك بن مروان .

وإليها تنسب أرض عاتكة ـ بدمشق ـ خارج باب الجابية ، وكان لها بها قصر ، وفي قصرها هذا مات زوجها عبد الملك بن مروان[1] .

* وَلَدتْ عاتكةُ لعبدِ الملك ، يزيد ومروان ، ومعاوية توفي صغيراً ، وابنة اسمها أمّ كلثوم[2] .

* * *

مِنْ محدِّثاتِ الشَّام :

* لم تكن عاتكة بنت يزيد بمعزلٍ عن العلم والرِّواية ، حيث إنّ عصرها عصرُ التَّابعين ، ذلك العصر الذي نشطتْ فيه علوم الحديث ،

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٣) ، وجمهرة أنساب العرب (٩١/١) ، وتاريخ الطبري (٦٦٨/٣) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧٣/٩) .

وسائر العلوم الأخرى ؛ فهي ممن تلقّى العلمَ من أفواه العلماء ممن أخذوا روايتهم عن الصَّحابة وعن أكابر التّابعين ، وكان لها كبير الأثر في الرّواية ، وإذا أردتَ أنْ تعرفَ مكانتها في عالم النّساء ، فاسمع إلى أبي زرعة حيث ذكرها في المحدّثات اللاتي تصدّيْنَ وتصدرْنَ للحديث فقال : وفيمن حدّث بالشّام من النّساء : عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

وعدّها ابن سُميع في طبقاته من الطبقة الثالثة .

وقال ابنُ عساكر : روى عنها مهاجر والد عمرو بن مهاجر الأنصاري[1] .

* * *

عَاتِكَةُ وفُقَراءُ آلِ أَبِي سُفْيَانَ :

* ما استبقت عاتكةُ ونساء عصرها في سبيل الكرم ، إلا وكانت هي أبعد مدىً ، وأطول يداً ، وأصدق ندى ، لأنها تفقّدتْ بإحساسها مواطنَ البؤسِ لدى الفقراء ، وتتبّعتْ مواقعَ الشّقاء عندهم ، فسترتِ الجسدَ العاري ، وجبرتْ كَسْرَ الجناح المهيض ، وأعادتِ البسمة إلى الوجوه ، ولم تكن عاتكة تجود باليسير من متاعها فحسب ، بل خرجت عن مالها كلّه لفقراء آل أبي سفيان ، فمما رواه أهل الأخبار في هذا قالوا :

---

(١) مهاجر الأنصاري : هو مهاجر بن أبي مسلم ، واسمه دينار الشّاميّ الأنصاريّ ، مولى أسماء بنت يزيد الأنصاري ـ رضي الله عنها ـ ، روى عن مولاته ومعاوية بن أبي سفيان ، وتبيع الحميري ، وروى عنه ابناه : عمرو ومحمد ، ومعاوية بن صالح الحضرميّ ، والوليد بن سليمان بن أبي السّائب . ذكره ابن سُميع في الطّبقة الرّابعة ، وذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب : ١٠/٣٢٣) .

لما كبر يزيد ومروان ابنا عبد الملك بن مروان من عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، قال لها زوجها عبد الملك : إنَّ ابنيك قد بلغا ، فلو أشهدتِ لهما مالَكِ وميراثَكِ من أبيك ، كان لهما فضيلة على سائر إخوتهما ـ يعني لأبيهما ـ فقالت : اجمع لي شهوداً من ثقات مواليَّ ومواليك حتى أشهدهم .

فجمعهم ، ووجَّه إليها بعدة منهم ، فدخلوا عليها ، وأدخل معهم رَوْح بن زِنباع[1] ـ وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مدخل مشايخها وأهلها ـ ، وقال له عبد الملك :

رغِّبها فيما صنعتُ ، وحسِّنْهُ لها وأخبرها برضائي عنها .

فدخل رَوْح عليها ، فتكلّم بما قاله عبد الملك تماماً ، وكانت تصغي لما يقول ، ولما فرغ من رسالته قالت له :

يا روح أتراني أخشى على ابنيَّ العَيْلة وهما ابنا أمير المؤمنين ؟ . إنَّ بنيَّ في غنىً عن مالي بأبيهم وموضعهم من الخلافة ، ولكنْ أشهدُكَ ، وأشهدكم أني تصدقتُ بمالي على فقراء آل بني سفيان ، وأوقفْتُه عليهم ، فهم إلى

---

(١) روحُ بنُ زِنباع بن روح بن سلامة ، الأمير الشّريف ، أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، سيّد قومه ، وكان شبه الوزير للخليفة عبد الملك بن مروان .
روى عن أبيه ـ ولأبيه صحبة ـ وعن عمّه الدارِيّ ، وعبادة بن الصّامت ، وروى عنه ابنه روح بن روح وآخرون .
وكان روحٌ سيّد اليمانية في الشّام ، وقائدها وخطيبها وشجاعها ، وكان عبد الملك بن مروان يقول : جمع روح طاعة أهل الشّام ، ودهاء أهل العراق ، وفقه أهل الحجاز .
قال عنه الذهبيّ : هو صدوق ، توفي روح في سنة (٨٤ هـ) ـ رحمه الله ـ (سير أعلام النبلاء : ٤/٢٥١ و ٢٥٢) ، و (الأعلام : ٣/٣٤) .

ذلك أحوج لتغيّر حالهم .

عندئذ خرج روحُ بن زنباع وقد تغير لونه ، وأقبل يجرُّ رجليه ، فلما نظر عبد الملك إليه قال : أمّا أنا فأشهد أنّك قد أقبلتَ بغير الوجه الذي أدبرتَ به ، فما لك ؟! .

قال روح : يا أمير المؤمنين ، وجهتني إلى معاويةَ بن أبي سفيان وهو جالس في أثوابه في الدّيوان ـ يريد أنّ عاتكة كجدّها معاوية في الحزم والذّكاء ـ وأخبره الخبر ، فغضبَ عبد الملك وتوعدها .

فقال له روح : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فوالله لهذا الفعل في ابنيها خير لك من مالها . عندئذ سكن غضب عبد الملك وكفّ عنها .

* أرأيت كيف بلغتْ عاتكة المدى في الجود ؟ وكيف كانت إجابتها التي تدلُّ على بُعْدِ نظرها في أمور الخلافة ؟ كما وتدلُّ أيضاً على أنّها بلغتِ المقامَ الأوفى في الأدب ، وكمال التّربية ، وتمام العقل .

* * *

عَاتكَةُ تَغْضَبُ وتَرضَى :

* شغلتْ عاتكةُ بنت يزيد ـ رحمها الله ـ مساحةً كبيرة في قلب زوجها عبد الملك ، فكان يحبُّها ويجلّها ، ويحترمُ رأيها ، غير أنّ هذا الحبَّ الشّديد كان يشوبه بعض الهجر والجفاء أحياناً ، فقد كانت عاتكة تغضب على زوجها ، وتسدُّ الأبوابَ فيما بينها ، ولكنَّ عبدَ الملك يسلك الطُّرقَ التي تؤدي إلى استرضائها بالحيلة أو الاستعاضةِ بأهل الحزم والمشورة .

• ذكروا أنّها غضبتْ على عبد الملك ، وكان بينهما باب ، فأغلقته ، فشقَّ ذلك على عبد الملك ، وشكا ذلك إلى رجلٍ من خاصته يُدعى : عمر بن بلال الأسديّ .

فقال له عمر : ما لي عندك إنْ رضيتْ عاتكة ؟

قال عبد الملك : ما تريد يا عمر ــ وكان عمر ظريفاً ذا حيلة ــ .

وانطلق عمر إلى بابها ، وجعل يتباكى ، فخرجت إليه جواريها ، فقلن له : ما لك ؟

قال : ابناي ، لم يكن لي غيرهما ، فقَتَلَ أحدهما صاحبه ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل الآخر به .

فقلت : أنا الولي ، وقد عفوتُ .

قال : لا أعوِّدُ النَّاس هذه العادة .وقد رجوت أنْ ينجي الله ابني هذا على يدي مولاتكن عاتكة . فدخلن عليها ، وذكرت لها ذلك ووصفن حاله وبكاءه وجزعه ، فقالت : وكيف أصنع من الجفوة بيننا وما أظهرت له ؟

قلن لها : إذاً والله يُقتل يا مولاتي .

فلم يزلن بها حتى دعت بثيابها ، ثم خرجت نحو الباب ، فأقيلت وسلّمتْ .

فقال لها عبد الملك : أما والله لولا عمرُ بنُ بلال ما جئتِ ، وسأقتل القاتل ، وأكره أنْ أعوِّدَ النَّاس هذه العادة فتكثر الفوضى .

فقالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين إنَّ عمر ببابي يطلبُ العفو ؛ ولم تزلْ تتعطفه حتى أخذت برجلهِ فقبّلتها فقال : هو لكِ ، ولم يبرحا حتى اصطلحا .

* وبرَّ عبد الملك بوعده ، وأنعم على عمر بن بلال الأسديّ ووصله وأكرمه لحسن وساطته وظرفه ، ثم اندفع عبد الملك يتمثّل بشعر كثير بن عبد الرحمن :

وإني لأرعى قومها منْ جلالها
وإنْ أظهروا غشاً نصحتُ لهم جهدي
ولو حاربوا قومي لكنتُ لقومها
صديقاً ولم أحملْ على قومها حِقْدي[1]

* * *

مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأبْقَى :

* على الرّغم من حبِّ عاتكة بنت يزيد للفخر بالحسب والنّسب والمال ، إلا أنَّ ذلك لم يقطعْ صِلتها بالله عزّ وجلّ ، بل كانت تعرف وتدرك أنَّ كلَّ شيء سيزول ، وأنَّ ما عند الله سبحانه باقٍ .

* ومن الأخبار التي ترفعُ مكانة عاتكة في هذا المجال ما ذكرتِ المصادرُ أنّها استأذنت زوجها عبد الملك في أداءِ فريضة الحج ، فأذن لها وقال :

---

(١) عن الأغاني (٢/١٣٥) ، وأعلام النساء (٣/٢١٦ و ٢١٧) بتصرف يسير . وللمزيد من مثل هذه الأخبار الطريفة ، اقرأ قصة في غيرة عاتكة في كتاب « المحاسن والمساوئ » للبيهقي (ص ٣٨٩ ـ ٣٩٦) .

يا عاتكة ارفعي حوائجك ـ قدّمي ـ واستظهري ، فإنّ عائشةَ بنت طلحة تحجُّ ، وإنْ أقمتِ كان أحبّ إلي .

فأبتْ عاتكة ورفعت حوائجها ، وجهزها بما يُرضي رغبتها وانطلقت ، فلما كانت بين مكةَ والمدينة ، أقبل رَكْب في جماعة فضعْضَعَها وفرّقَ جماعتها ، فقالوا : هذه عائشة بنت طلحة ، فإذا ذلك الموكب مع جارية من جواريها ؛ ثم جاء ركبٌ مثله ، فسألت فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاء موكب أعظم من ذلك في ثلاثمئة راحلة ، فقالت عاتكة : ما عند الله خيرٌ وأبقى[1] .

* * *

مِنْ أَخْبارِها مع عَبْدِ المَلِكِ :

* كان مصعبُ بنُ الزُّبير بالعراق قد أعيا عبد الملك بن مروان وأجهده ، وفرّقَ جيوشه ، وأنزلَ بهم الهزائم ، فلما طال عليه ذلك اشتدّ غمه ، فأمر النّاس فاستعدوا للمسير إلى العراق ، فلما أجمع على المسير ، قالت له عاتكة : يا أمير المؤمنين ، وجّهِ الجنودَ وأقمْ فليس الرأي أنْ يباشرَ الخليفة الحرب بنفسه ، وألحّتْ عليه في البقاء . فقال : لو وجهتُ إليه أهل الشّام كلّهم ، وعلم مصعب أنّي لستُ معهم لهلك الجيش كلّه ، ثم تمثل قائلاً :

ومستخبرٍ عنا يريدُ بنا الرّدى
ومستخبراتٍ والعيونُ سواكبُ

---

(١) انظر تاريخ دمشق (ص ٢٠٥ و ٢٠٦) .

* ولما عزم على الخروج لمحاربة مصعب ، تعلّقت به عاتكة ، فبكتْ ، وبكى جواريها معها ، فلمّا علا الصّوت رجع إليها فقال : قاتَلَ الله كثيّر عزّة ، كأنّه رأى موقفنا هذا حين قال :

إذا مـا أرادَ الغَـزْوَ لم تثـنِ همّـه
حَصَـانٌ عليهـا نظْـم دُرٍّ يَزِينُهـا
نَهَتْـهُ فلمّـا لم تَرَ النّهيَ عاقَه
بكتْ فبكى مما عَرَاها قطينُهـا[1]

ثم عزم عليها أنْ تقصُرَ ، فأقصرت ، ثم مضى وخرج لمقصده[2] .

* قال أبو الحسن عزّ الدّين بن الأثير في « الكامل » :

ولمّا قُتل مصعب ، بعث عبد الملك رأسه إلى الكوفة ، أو حمله معه إليها ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر ، فلما رآه وقد قطع السّيف أنفه قال : رحمكَ الله ! أمَا والله لقد كنتَ مِنْ أحسنِهم خلقاً ، وأشدّهم بأساً ، وأسخاهم نفساً ، ثم سيّره إلى الشّام ، فأخذته عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وهي أمّ يزيد بن عبد الملك ، فغسلته ودفنته وقالت : أمَا رضيتم بما صنعتُم حتى تطوفوا به في المدن ؛ هذا بغي ! وكان مقتل مصعب سنة (٧١ هـ) رحمه الله[3] .

(١) « القطين » : الخدم والإماء والحشم والأتباع من أهل الدار .
(٢) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها : الأمالي (١٣/١) ، وتاريخ دمشق (ص ٢٠٣ و ٢٠٤) ، والأغاني (١٣٤/٨) ، ووفيات الأعيان (١٠٨/٤) ، والكامل (٣٢٤/٤) ، والبداية والنهاية (٢٦٢/٩) وغيرها من المصادر وكتب التاريخ والأدب .
(٣) الكامل في التاريخ (٣٣٢/٤ و ٣٣٣) .

* ومن أخبار عاتكة مع عبد الملك ما رواه الإمام الزّهريّ قال : دعاني عبد الملك في قُرّاء من قُرّاء أهل دمشق ، فدخلنا عليه ، وإذا امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية جالسة ، وابن لها صغير مريض ، فأخذنا ندعو الله عزّ وجلّ ، وأخذ هو يدعو فقال : بحقّ مكاني الذي وضعتني ، فلم يبرحْ حتى مات .

قال الزّهريّ : وكان هو أشدّ جزعاً من أمّ الصّبيّ ـ عاتكة ـ فلمّا مات صَبَرَ ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أنت كنتَ أشدّ جزعاً منها ، وهي السّاعة أشدّ جزعاً منك . فقال : إنّا نجزع من الأمر ما لم يقعْ ، فإذا وقع صبرنا[1] .

* وعاشت عاتكة معظم الخلافة الأموية ، إذ كانت من النّساء المعمّرات ، حيث بقيتْ حتى أدركتْ قتلَ ابن ابنها الوليد بن يزيد بن عبد الملك في سنة (١٢٦ هـ) .

* وتوفيت عاتكة في دمشقَ بعد سنة (١٣٢ هـ) ، ودفنت فيها في المحلة التي تنسب إليها فيقال : قبر عاتكة ؛ وهو مكان مشهور بدمشق الآن .

* وذكر صاحب كتاب « الهفوات النّادرة » خبراً يشير به إلى أنّ عاتكة عاشت إلى نهاية دولة بني أمية ، حيث إنّها رأت حلماً ، ولم يمضِ

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٦) .
(٢) انظر البداية والنهاية (٣٤١/٩) ، والدارس للنعيمي (٢٥٧/١) و (٢٠٤/٢) .
(٣) راجع الخبر كاملاً في كتاب « الهفوات النادرة » لأبي الحسن محمد بن هلال الصابي (ص ٢٠٨) .

على حلمها شهر حتى قُضِيَ على الخلافة الأموية بدمشق ، وكان ذلك في سنة (١٣٢ هـ) .

* رحم الله عاتكة بنت يزيد ، وأدخلها في رحمته مع مَنْ يشاء ، إنّه غفور رحيم .

* * *

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

فاطمة بنت علي

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٣)

فاطمة بنت عليّ

• بنت فاطمة الزهراء ، محبّة للعلم ، راوية للحديث النبوي ، عابدة ، فقيهة ، من المعمّرات .

فَاطِمَةُ بِنْتُ عَلِيّ

الذُّرِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ :

* عندما ذكرَ الطَّبريُّ وابنُ الأثير ـ رحمهما الله ـ في تاريخيْهما ذريّة سيّدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قالا :

جميع ولد عليّ ـ رضي الله عنه ـ لصُلْبه أربعة عشر ذكراً ، وسبْع عشرة امرأة . وكان له بنات من أمهات شتّى لم يُسَمّ لنا أسماء أمهاتهن منهن : أمُّ هانئ ، وميمونةُ ، وزينبُ الصُّغرى ، ورملةُ الصُّغرى ، وأمُّ كلثوم الصُّغرى ، وفاطمةُ ، وأمامةُ ، وخديجةُ ، وأمُّ الكرام ، وأمُّ سلمة ، وأمُّ جعفر ، وجمانةُ ، ونفيسةُ بنات عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، أمهاتُهن أمهات أولاد شتّى ؛ أمّا زوجه فاطمة الزّهراء فقد ولدت له من الإناث : زينب[1] الكبرى ،وأمّ كلثوم[2] الكبرى . وأما زوجه أمّ سعيد بن عروة الثقفية فولدت له أمّ الحسن ورملة الكبرى . ومجموع هؤلاء سبع عشرة امرأة[3] .

* وحديثنا عن واحدة من هؤلاء البنات الطّاهرات وهي : فاطمةُ

---

(١) اقرأ سيرة زينب بنت علي في هذا الكتاب .

(٢) اقرأ سيرة أم كلثوم بنت علي في هذا الكتاب .

(٣) تاريخ الطبري (١٦٢/٣) ، والكامل (٣٩٨/٣) .

بنتُ عليّ بن أبي طالب الهاشمية ، أمُّها أمّ ولد ، وهي فاطمة الصُّغرى[1] .

* ويبدو أنَّ فاطمةَ هذه أصغرُ بنات سيّدنا عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، وقد سمّاها فاطمة إحياء لذكرى زوجه فاطمة الزّهراء ـ رضوان الله عليها ـ ، ولشدّة الشّبه بينهما .

* ولا نستطيع تحديد مولد فاطمة الصُّغرى هذه ، غير أنَّ الدلائلَ تشيرُ إشاراتٍ تدعونا إلى القول بأنّها ولدت في حدود سنة (٣٠ هـ) تقريباً ـ والله أعلم ـ .

* وعندما أصبحت فاطمة في سنّ الزّواج ، وبلغت مبلغ النّساء ، تزوّجها محمّد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب ؛ فولدت له : حميدة بنت محمد . ثمّ خلف عليها سعيد بن الأسود ؛ فولدت له برزة وخالداً . ثمّ خلف عليها المنذر بن عبيدة بن الزّبير بن العوّام ؛ فولدت له عثمان وكبيرة[2] .

* * *

حُبُّها للعِلْمِ والرِّوَايَةِ :

* منذ أنْ نشأتْ فاطمة بنت عليّ ـ رحمها الله ـ ، تعلّقتْ بالعلم وحبِّ الرّواية للأحاديث النّبويّة الشّريفة ، فكانت تلميذةً نجيبةً لزوجة أبيها أسماء بنت عميس[3] الصّحابية المشهورة ـ رضي الله عنها ـ ، فقد

---

(١) الطبقات (٨/٤٦٥) ، وتهذيب التهذيب (١٢/٤٤٢) .

(٢) الطبقات (٨/٤٦٥ و ٤٦٦) ، ونسب قريش (ص ٤٦) .

(٣) اقرأ سيرة هذه الصحابية الجليلة في كتابنا « نساء من عصر النبوة » الجزء الثاني .

روت كثيراً من حديث رسول الله ﷺ . كما أنها روت عن أخيها محمّد بن علي المشهور بمحمّد بن الحنفيّة .

* وقد تلقّى عنها العلمَ ورَوَاهُ عددٌ كبيرٌ من علماء عصر التّابعين ، وفي مقدمة هؤلاء : الحارث بن كعب الكوفي ، والحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعم ، وعروة بن عبد الله بن قشير ، وعيسى بن عثمان ، وموسى الجهني[1] ، ونافع بن أبي نعيم القارئ وغيرهم .

* وقد روى لها الإمام النّسائي في سننه .

* * *

نَمَاذِجُ مِنْ مَرْوِيَاتِهَا :

* قال ابنُ سعد في « الطّبقات » :

وقد بقيتْ فاطمةُ بنتُ عليّ ، وروى عنها .

* وأخرج ابنُ سعد بسنده عنها قالت :

---

(١) موسى بن عبد الله الجهنيّ ، أبو سلمة التّابعيّ ، روى عن زيد بن وهب ، ومصعب بن سعد ، وفاطمة بنت عليّ وآخرين .

وروى عنه شعبة والثوريّ والحسن بن صالح وعدد من أكابر علماء التّابعين . وثّقه القطان وابن معين والعجلي . وذكره ابن حبّان في الثّقات . قال ابنُ سعد : كان ثقةً قليلَ الحديث .

وعن يعلى بن عُبيد قال : كان بالكوفة أربعة من رؤساء النّاس وبلائهم وذكره منهم . وعن مسعر قال : ما رأيتُ موسى الجهنيّ إلا وهو في اليوم الآتي خيرٌ منه في اليوم الماضي ، توفي سنة (١٤٤ هـ) رحمه الله . (تهذيب التهذيب : ١٠/٣٥٤ و ٣٥٥) .

قال أبي عن رسول الله ﷺ : « مَنْ أعتقَ نسمةً مسلمة أو مؤمنة وق الله بكلِّ عضو منه عضواً منه في النّار »[1] .

* ومما روته فاطمة ، ما أخرجه ابنُ عساكر رحمه الله بسنده عن موسى الجهنيّ عنها ، عن أسماء بنت عميس قالت : إنّها سمعت النّبيّ ﷺ يقول :

« يا عليّ أنتَ مني بمنزلةِ هارونَ من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي[2] » .

* * *

أخلاقُها وعِبادتُها وفقهُها :

* نشأت فاطمةُ بنتُ علي ـ رحمها الله ـ نشأةً خالصة من كلّ شائبة ، فكانت تحبُّ الصّراحة قولاً وفعلاً ، وتكره أنْ تميلَ إلى الرّياء مهما كانت صُوره ، بل كانت ترفض طريق الرّياء ، أو الوسائل المؤدية إليه ، فقد حدّثَ راويتها عيسى بن عثمان عن أخلاقها في هذا المجال فقال :

كنتُ عند فاطمة بنت علي ، فجاء رجل يشتي على أبيها عندها ، فأخذت رماداً فسفّتْ في وجهه .

* وكانت ـ رحمها الله ـ تكثر التّدبر في آيات الله عزّ وجلّ ، وتتفكّرُ في أمور الحياة وشؤونها حتى أضناها السّهر من التفكير في هذه

---

(١) الطبقات الكبرى (١/٤٦٦) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٢٩٨) .

الأمور ، وشكت ما يعتريها من كثرة السَّهر والفكر إلى أخيها محمّد بن علي ـ ابن الحنفيّة ـ فقال لها : اجعلي سهرك وفكرك في ذِكْر الموت[1] .

قالت فاطمةُ : ففعلتُ ما أمرني به أخي ، فذهبَ عني السَّهر والفكْر .

* وتدلُّ أخبار فاطمة ـ رحمها الله ـ على أنّها كانت على جانبٍ كبيرٍ من العبادة ، وفقْهٍ أحكام النِّساء ، وكانت تكره أنْ تتشبّه النِّساءُ بالرِّجال ؛ حدَّث عروة بن عبد الله بن قُشير أنه دخل على فاطمة بنت علي بن أبي طالب قال : فرأيتُ في يدها مَسَكاً ـ أساور ـ غلاظاً ، في كلّ يد اثنين اثنين ، قال : ورأيتُ في يدها خاتماً ، وفي عنقها خيطاً فيه خرز ؛ قال : فسألتها عنه فقالت : إنَّ المرأةَ لا تتشبّه بالرِّجال[2] .

* * *

(١) في استحباب ذكر الموت ، رغّب الشّارعُ في تذكّر الموت ، والاستعداد له بصالح الأعمال ، وعدّ ذلك من دلائل الخير ، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : أتيتُ النّبيّ ﷺ عاشر عشرة ، فقام رجلٌ من الأنصار فقال : يا نبي الله ، من أكيسُ النّاس وأحزمُ النّاس ؟ قال : « أكثرهُمْ ذكراً للموت ، وأكثرهم استعداداً للموت ، أولئك الأكياس ؛ ذهبوا بشرف الدّنيا وكرامة الآخرة » . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هادم ـ قاضع ـ اللذات » ـ يعني الموت ـ رواها الطبراني بإسناد حسن . وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ في قول الله عز وجل : ﴿ فمَنْ يُرِد اللهُ أنْ يهديَه يشرح صدره للإسلام ﴾ [الأنعام : ١٢٥] قال : « إذا دخل النّور القلب انفسح وانشرح » ، قالوا : هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود والتّجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » رواه ابن جرير . وفي هذا دليل على فقه ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ ، وفقه فاطمة بنت علي ـ رحمها الله ـ .

(٢) السمط الثمين (ص ١٥٩) .

فاطِمَةُ في الشَّامِ :

* في المحرّم من سنة إحدى وستين من الهجرة ، كانت فاطمةُ مع أخيها الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ لما قُتل في كربلاء ، ثم قُدِمَ بها دمشق في عيال الحسين بعد قَتْله ، ودُخل بهم على يزيدَ بن معاوية ، وكان لها قصة عند يزيد .

* ذكر الحارث بن كعب تلك القصة عن فاطمة أنها قالت :

لما جلسنا بين يدي يزيد رقَّ لنا ، وأُمِرَ لنا بشيء ، وألطفنا ، ثم إنَّ رجلاً من أهل الشَّام أَحْمَرَ قام إلى يزيد فقال :

يا أمير المؤمنين ، هَبْ لي هذه ـ يعنيني ـ وكنتُ جاريةً وضيئةً ، فارتعدتُ فَزِعةً من قوله ، وظننتُ أنَّ ذلك جائز لهم ، فأخذتُ بثياب أختي زينب ـ وكانت أكبر مني وأعقل ، وكانت تعلم أنَّ ذلك لا يجوز ـ فقالت لذلك الرَّجل : كذبتَ والله ولؤمتَ ، ما ذلك لكَ وله .

فغضبَ يزيد فقال لها : كذبتِ ! والله إنَّ ذلك لي ، ولو شئتُ أنْ أفعله لفعلت .

قالت : كلا ! واللهِ ما جعلَ الله ذلك لك إلا أنْ تخرجَ من ملَّتِنا ، وتدين بغير دِيْنِنا .

فغضبَ يزيد واستطار ثم قال : إياي تستقبلين بهذا ؟ إنما خرج من الدِّين أبوكِ وأخوك . فقالت زينب : بدينِ الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديتَ أنتَ وأبوكَ وجدّك .

قال : كذبتِ يا عدوّة الله .

قالت : أنت أمير المؤمنين مسلّط ، تشتم ظالماً ، وتقهرُ بسلطانك .

قالت فاطمة : فوالله لكأنه استحى فسكت . ثم قام ذلك الرّجل فقال : يا أمير المؤمنين هَبْ لي هذه ــ وأشار إليّ ثانية ــ .

فقال له يزيد : اغرب ، وهب الله لك حتفاً قاضياً .

ثم إنّ يزيدَ أمر النّعمان بن بشير الأنصاريّ ، أنْ يبعثَ بآل الحسين إلى المدينة المنوّرة ، وأنْ يبعثَ معهم رجلاً أميناً ديّناً معه رجال أمناء وخيل وسلاح لحمايتهم حتى يوصلهم مأمنهم .

* وبعد ذلك أنزل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان النّساء عند حرمه في دار الخلافة ، ونزلت فاطمة وأخواتها ونساء الحسين دار يزيد ، فاستقبلتهن نساء آل معاوية يبكين الحسين وقتلى آل هاشم ومن قُتل بكربلاء ، ومن ثم ودّعهم يزيد ، وجهزهم بجهازهم ، وكساهم وأعطاهم مالاً كثيراً ، وأوصى بهم في ذلك الرّجل الشّامي الأمين ، وقال له : كاتبني بكلّ حاجة تكونُ لك . فكان ذلك الرّجل من خيرة الرّجال ، يخدمُهم ويحوطُهم برعايته حتى وصلوا المدينة المنوّرة ؛ فقالت فاطمة لأختها زينب ، وقد أحبّتْ أنْ تكافئ الرّجل الشّامي وتردّ عليه بالإحسان : يا أخيّة ، إنّ هذا الرّجل الذي أرسل معنا قد أحسن صحبتنا ، فهل لك أنْ نَصِلَه ؟

ووافقت زينب ، وبعثتا له حليّهما واعتذرتا إليه وقالتا له : هذا جزاؤك بحُسن صحبتك لنا ، فجزاك الله خيراً .

فقال : ما فعلتُ ذلك إلا لله عزّ وجلّ ، ولقرابتكم من رسول الله

ﷺ ، وأبى أنْ يأخذَ شيئاً .

* * *

أَهْلُ السِّيادةِ :

* لفاطمةَ بنتِ علي ، وآل بيت النبيّ الكريم ﷺ مكانة سامية في نفوس النّاس على اختلاف طبقاتهم ، فأهل البيت هم مجمع العلم والفضل ، وأهل التُّقى والأدب ، لذلك كانت تهفو إليهم النُّفوس الصّافية ، وتتقرّبُ بحبّها إليهم ، لتحظى بمرضاة الباري جلّ جلاله ، ولله درّ مَنْ قال :

فلا تَعْدلْ بأهلِ البيتِ خَلْقاً
فأهلُ البيتِ هم أهل السِّيادة
فبغضهمُ مِنَ الإنسان خُسْرٌ
حقيقيٌّ وحبُّهمُ عِبادة

وما أجمل قول الآخر في هذا المعنى :

مديحُ آل النّبيِّ عندي
« خيرٌ من اللهو ومن التجارة »(١)
أنجو بهم من عذاب نارٍ
« وقودها النّاس والحجارة »(٢)

* ولذلك ، وعندما كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ والياً على

(١) اقتباس من سورة [الجمعة : ١١] .
(٢) اقتباس من سورة [التحريم : ٦] .

المدينة المنورة[1] ، كان يكرم فاطمة بنت علي وآل البيت إكراماً منقطعَ النَّظير ، وكانت فاطمة ـ رحمها الله ـ إذا ذكرتْ عمر أثنتْ عليه وأكبرت عمله لبرّه بها وبأقاربها ، حدَّثَ جويريةُ بنُ أسماء عنها هذا كما ورد في « الطَّبقات » فقال :

سمعتُ فاطمة بنتَ عليّ بن أبي طالب ذكرتْ عمر بن عبد العزيز فأكثرت التَّرحّمَ عليه وقالت :

دخلتُ عليه وهو أمير المدينة يومئذ ، فأخرج عني كلَّ خصيّ وحَرَميّ حتى لم يبقَ في البيت أحد غيري وغيره ثم قال :

يا ابنة عليّ ، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبَّ إليّ منكم ، ولأنتم أحبّ إليّ من أهل بيتي .

وكأنَّ الشَّاعر عناه بقوله :

حبُّ آل النَّبيّ خالطَ عظمي
وجرى في مفاصلي فاعذروني
أنا والله مغرمٌ بهواهم
عذَّلوني بذكرهم عذلوني

---

(١) تولّى عمر بن عبد العزيز المدينة ومكّة من سنة (٨٦ هـ إلى ٩٣ هـ) ، فكان في مدة ولايته من أحسن النَّاس معاشرة ، وأعدلهم سيرة ، فكان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة ، وقد عيّن عشرة منهم ، وكان لا يقطع أمراً من دونهم ، أو من حضر منهم ، والفقهاء العشرة هم : عروة بن الزّبير ، عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة ، أبو بكر بن عبد الرحمن ، أبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، سليمانُ بن يسار ، القاسم بن محمّد ، سالم بن عبد الله بن عمر ، عبد الله بن عبد الله بن عمر ، عبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ـ رحمهم الله ـ .

* ومن الجدير بالذكر أنَّ برّ عمر بن عبد العزيز كان يلحق كلَّ واحد من آل البيت ، وشهدت له بهذا البرّ إحدى سيدات بيت النبوة وهي فاطمةُ بنت الحسين[1] ، إذ كتبتْ إليه تشكره ، وتقسمُ بالله : يا أمير المؤمنين ، لقد أخدمت مَنْ كان لا خادم له ، واكتسى منهم مَنْ كان عارياً . فسُرّ بذلك عمر ـ رحمه الله تعالى ـ .

* وهذه شهادة أخرى ـ بهذا الخصوص ـ وهذا الرَّجل من آل البيت وهو عبد الله بن محمّد بن عقيل بن أبي طالب قال :

أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمالٌ بعث به إلينا أهل البيت ، فأعطى المرأة منّا مثل ما يُعطى الرّجل ، وأعطى الصّبيَّ مثل ما تُعطى المرأة ، فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار[2] .

* * *

رحلةُ الخُلُودِ والحقّ :

* فاطمةُ بنتُ علي من النّساء التّابعيات اللاتي امتدت بهن الحياة إلى ما بعد القرن الهجريّ الأول ، وكانت من النّسوة المعمّرات ، ولعلّها قد تجاوزت التّسعين ، ويدلّ على هذا ما قاله موسى الجهنيّ :

دخلتُ على فاطمة بنت علي وهي ابنة ست وثمانين سنة ، فقلت لها : تحفظين عن أبيك شيئاً ؟ قالت : لا .

---

(١) اقرأ سيرة فاطمة ابنة الحسين في هذا الكتاب ففيها كثير من الإشراقات اللطيفة .

(٢) الطبقات (٣٩٢/٣) .

* وفي سنة (١١٧ هـ) كانت رحلة الخلود لفاطمة ، تلك الرّحلة الأبديّة التي لقيتْ فيها الله عزّ وجلّ ، بعد عُمرٍ مديد قضته في الطّاعات ـ رحمها الله ـ .

* وممن توفي في هذه السّنة من التّابعيات : عائشة بنت سيدنا سعد بن أبي وقّاص ، وكان وفاتها بالمدينة المنورة ، وقد رأت ستاً من أمهات المؤمنين ، وعاشت أربعاً وثمانين عاماً ـ رحمها الله ـ .

وتوفيت أيضاً ، سُكينة ابنة سيدنا الحسين بن علي ـ ابنة أخي فاطمة صاحبة هذه الترجمة ـ وكانت وفاتها بالمدينة المنورة أيضاً .

* أما عن مكان وفاة فاطمة بنت علي ـ رحمها الله ـ ، فيقول صاحب كتاب « حدائق الإنعام في فضائل الشّام » : وقبر فاطمة بنت الإمام عليّ بمقبرة باب الصّغير ـ بدمشق ـ وعليه بناءٌ وهيبة ، معروف يُقصد بالزيارة[1] .

رحم الله فاطمة بنت علي ، ونضّر قبرها ، ونجّاها من النّار ، وأدخلها الجنّة مع الأبرار .

* * *

(١) حدائق الإنعام (ص ١٤١) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

عائشة بنت طلحة

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١)

عائشة بنت طلحة

• قال أبو زُرعة الدمشقي :

عائشة بنت طلحة امرأة جليلة ، تُحدِّثُ عن عائشة أم المؤمنين .

• وقال العجلي :

عائشة بنت طلحة مدنيّة ، تابعيّة ، ثقة .

• وقال المزّي :

لم يكن من النّساء أعلم من تلميذات عائشة أم المؤمنين :

عمرة بنت عبد الرحمن ، وحفصة بنت سيرين ، وعائشة بنت طلحة .

عائشةُ بنتُ طلْحة

البيتُ الزُّكي :

* هذه تابعيةٌ جليلة ، سليلةُ بيتٍ كبير القَدْر في عصْر النُّبوة ، نشأت في أحضان بيت النُّبوةِ برعايةِ عائشة بنت الصِّديق أمّ المؤمنين رضي الله عنها ، فكانت من أبْين النِّساء علماً وأدباً وكرماً .

* وقد حباها الله عزّ وجلّ جمالاً باهراً ، كأنّما هي إحدى حور الجنّة في هذه الدُّنيا .

* رآها سيّدُنا أبو هريرة رضي الله عنه فقال : ما رأيتُ أحداً أجمل من عائشةَ بنتِ طلحةَ إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ .

* وقال لها سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : واللهِ ما رأيتُ أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ ! فقالت : واللهِ لأنا أحسن من النّارِ في عين المقْرور في الليلةِ القارّة[1] .

* فمن أيّ البيوت انحدرتْ هذه التّابعية ؟ .

* قبل أنْ تدخلَ في سيرتها ، دعونا نعرف شيئاً عن أسرتها العريقةِ في منابتِ الإسلام .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٩ و ٢١٠) . و « القارّة » : الباردة .

* فأبوها : سيّدنا طلحة بن عبيد الله التّيميّ القرشيّ ، أحد العشرة المبشرين بالجنّة ، وأحد الصّحابة الأخيار الأجواد ، لقّبه النّبيُّ ﷺ بـ « طلحة الجود » و « طلحة الخير » و « طلحة الفيّاض » ودعاه مرّةً « الصّبيح المليح الفصيح » ويكفيه فخراً أنّه أحد الثّمانية السّابقين إلى الإسلام .

* وأمُّها : أمُّ كلثوم بنت سيّدنا أبي بكر الصّدّيق التّيميّة القُرشيّة ، تابعيةٌ جليلةُ القدْر ، ولدتها أمُّها حبيبة بنت خارجة الأنصاريّة بعد وفاة الصّدّيق ؛ وأمُّ كلثوم هذه هي التي قال أبو بكر لعائشة ابنته حين حضرته الوفاة : إنّما هما أخواك وأختاك .

قالت عائشة : هذه أسماء قد عرفتُها ، فمَن الأخرى ؟! قال : ذو بطن بنت خارجة ــ يعني زوجه حبيبة وكانت حاملاً ــ قد ألقيَ في خلدي أنّها جارية .

فكانت كما قال ، وولدتْ أمُّ كلثوم[1] بعد وفاته رضي الله عنه .

* وأمّا خالتها : فهي الصّدّيقة بنت الصّدّيق عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها .

* وخالتها الأخرى : ذات النّطاقين أسماء بنت الصّدّيق رضي الله عنها .

* هذه الأسرة الزّكيّة العريقة التي نشأتْ فيها عائشة بنت طلحة بن

---

(١) اقرأ سيرة أمّ كلثوم بنت أبي بكر في هذا الكتاب .

عبيد الله ، أمُّ عمران التَّيميَّة القرشيَّة[1] .

* * *

زَوَاجُهَا :

* تزوَّجتْ عائشةُ بنت طلحةَ ابن خالها ، تزوَّجته برأي خالتها عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها ، وزوجُها هو عبدُ الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدّيق ، ولدتْ له عمران ـ وبه كانت تكنى ـ وعبد الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، ونفيسة[2] .

* وكان ابنُها طلحة بن عبد الله من أجواد قريش ، ومن كرمائهم ، وله يقول الحزينُ الذّبيانيّ يذكر نسبه وأمّه :

وإنْ تَلكُ يا طلحَ أعْطيتني
عذافرةً تَسْتخفُّ الضَّفارا[3]

فما كان نفعلكَ لي مرّةً
ولا مرتين ولكنْ مِرارا

أبوكَ الذي صدَّقَ المصطفى
وسار مع المهتدي حيثُ سارا

وأمّك بيضاءُ تيميّةٌ
إذا نُسِبَ النَّاس كانت نُضارا[4]

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٧) ، وتواضع المخطوطات (١/٧٠) ، وتقريب التهذيب (٢/٦٠٦) .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١/١٣٧) .

(٣) « العذافرة » : العظيمة الشّديدة من الإبل . والمذكر : عذافر ، وهو أيضاً الأسد .

(٤) « تيميّة » : منسوبة إلى تيم . والمراد هنا : تيم بن مرّة بطن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . و « النُّضار » : بالضم : الجوهر الخالص من التبر .

الرَّاوِيَةُ النَّجِيبَةُ :

* كانت عائشةُ بنتُ طلحةَ أشبه النَّاس بخالتها عائشة أمّ المؤمنين ، وأحبّهم إليها ، وأطْبعهم على علمِها وأدبِها ، فقد تتلمذتْ عليها ، وروتْ عنها الحديثَ النّبوي الشّريف ، وحديثها مخرّجٌ في الصِّحاح[1] .

* وقد اقتبستْ عائشةُ بنتُ طلحة منْ خالتها علمها وأدبها وخلالها ، فكانت من فضليات التّابعيات اللاتي رُوِيَ عنهن الحديث .

* روى عنها الحديث ثلةٌ من أكابر التّابعين ، وجلّة العلماء ، منهم : ابنها طلحة بن عبد الله ، وابن أخيها طلحة بن يحيى ، وابن أخيها الآخر معاوية بن إسحاق ، والمنهال بن عمرو ، وفُضيل بن عمرو الفقيمي ، وحبيب بن أبي عمرة[2] ، وعطاء بن أبي رباح ، وعمر بن سعيد وغيرهم .

* * *

أَحَادِيثُ شَرِيفَةٌ مِنْ مَرْوِيَّاتِها :

* من مرويات عائشة بنت طلحة رحمها الله ما أخرجه الحافظ ابن عساكر بسنده عنها عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٣٦١) .

(٢) حبيبُ بن أبي عمرة القصّاب ، أبو عبد الله الحنّاني ، مولاهم الكوفي التّابعيّ ، روى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعائشة بنت طلحة ، وأمّ الدرداء ، وروى عنه أكابر التّابعين أيضاً . كان ثقة ، قليل الحديث ، روى نحو (١٥ حديثاً) قال ابن معين والنّسائي : ثقة . وقال أحمد : شيخ ثقة . مات سنة (١٤٢ هـ) رحمه الله . (تهذيب التّهذيب : ٢/١٨٨) و (تقريب التّهذيب : ١/١٥٠) .

قلتُ : يا رسول الله ، إن صبيّاً من الأنصار ، لم يبلغ السِّنَّ ، عصفورٌ من عصافير الجنَّة .

قال : « أو غيرَ ذلك يا عائشة ، خلقَ اللهُ الجنَّة ، وخلق لها أهلاً ، وخلقَ النَّار ، وخلقَ لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم »[1] .

* ومن مروياتها ما أخرجه أبو داود بسنده عن المنهال بن عمرو ، عن عائشةَ بنتِ طلحةَ ، عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :

ما رأيتُ أحداً كان أشبه سمتاً ولا هدياً ودلّاً برسول الله ﷺ من فاطمةَ كرّم الله وجهها ، كانت إذا دخلتُ عليه قامَ إليها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامتْ إليه فأخذت بيده فقبّلته وأجلسته في مجلسها[2] .

* ومما رُوي لها في الصِّحاح ما أخرجه مُسلم بسنده عن طلحةَ بنِ يحيى بنِ طلحةَ عن عائشةَ بنتِ طلحةَ عن عائشةَ أمِّ المؤمنين قالت :

قال رسول الله ﷺ : « أسرعُكُنَّ لَحاقاً بي أطولُكُنَّ يداً » .

قال : فكنَّ يتطاولن أيَّتُهُنَّ أطولُ يداً ، فكانت أطولنا يداً زينب ـ

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢١٧) في الأدب ، ورواه الترمذي (٣٨٧٢) في المناقب ، والحاكم في المستدرك (١٥٢/٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . السمت والهدي والدل ، ألفاظ متقاربة المعاني ، ومعناها : الهيئة والطريقة وحسن الخلق .

بنت جحش زوج النبي ﷺ ـ لأنها كانت تعملُ بيدها وتَصدق[1] .

* * *

عَائشَةُ في ميزَانِ العُلَمَاء :

* لا شكَّ في أنَّ امرأةً تابعية كعائشةَ بنتِ طلحةَ ، غُذِّيتْ في بيتِ النُّبوة ، أنْ تكونَ من عليةِ النِّساء علماً وقدراً وصدقاً ، لذلك أثنى عليها العلماءُ والكبراءُ ممن يعرفون رواية الحديث ، وممن لهم خبرة بعلومه ، ويكفيها فخراً أنَّ إمامَ الجرح والتَّعديل وعَلَمَ الحديث والمحدِّثينَ في زمانه يحيى بن معين يوثقها ويحتجُّ بحديثها فيقول : الثِّقاتُ مِنَ النِّساء عائشة بنت طلحةَ ثقةٌ حجة .

* بينما أثنى عليها أبو زُرعة الدِّمشقي ، وذكر فضْلها وقَدْرها فقال : عائشةُ بنتُ طلحةَ ، امرأةٌ جليلةٌ تحدَّثُ عن عائشةَ ـ أمِّ المؤمنين ـ وتحدَّث النَّاس عنها بقدْرِها وأدبها .

* وفي الثَّناء عليها يقول العجليُّ : عائشةُ بنتُ طلحةَ مَدَنيَّة ، تابعيَّةٌ ، ثقة .

* وفي كتاب « الثِّقات » ذكرها ابنُ حبان وأثنى عليها[2] .

* وفي « البدايةِ والنِّهاية » نقل ابنُ كثير عن شيخه المِزِّيِّ قوله : لم يكن في النِّساء أعلم منْ تلميذات عائشة أم المؤمنين : عمرة بنت عبد

---

(١) صحيح مسلم (١٤٤/٧) باب : من فضل زينب أم المؤمنين . وانظر كتابنا « نساء مبشرات بالجنة » (٢٧٢/١) ففيه تفصيل الحديث .

(٢) عن تاريخ دمشق (ص ٢٠٧ ـ ٢١٠) ، وتهذيب التهذيب (٤٣٧/١٢) .

الرحمن ، وحفصة بنت سيرين ، وعائشة بنت طلحة .

* * *

كَرَامَةٌ لعَائِشَةَ :

* كانت عائشةُ بنتُ طلحةَ ـ رحمها الله ـ على جانبٍ عظيم من الذِّكر ، فكان لسانُها لا يفتر عن التَّسبيح بالغدوّ والآصال ، وأضحتْ نفسُها صافيةً صفاءً جعلها الوحيدة من بين بناتِ طلحة ـ رضي الله عنه ـ لتقوم بمهمّة رأتْها في منامها .

فقد أوردت المصادر[1] ـ مع الجمع بينها ـ أنّها رأتْ والدها بعد موته ببضع وثلاثين سنة فكان يقول لها :

يا بُنيّة أخرجيني من هذا الماءِ الذي يؤذيني ، فإنَّ النَّزّ قد آذاني .

فلمـا انتبهت من نومهـا ، جمعتْ أعوانها ثم نهضتْ ، فركبتْ في حشمها ، وتبشوهُ ، فوجدته صحيحاً كما دُفنَ لم تتحسرْ له شعرة ، وقد اخضرَّ جنبُه كالسِّلق من الماء الذي كان يسيلُ عليه ، وتولى إخراجه عبد الرحمن بن سلامة التَّيمي ، ثم لفَّهُ في الملاحف ، واشترتْ له داراً من دور آل أبي بكرة بالبصرة ، فدفنته فيها ، وبنتْ حوله مسجداً ، فكانتِ المرأةُ منْ أهل البصرة تقبلُ بالقارورة من البانِ فتصبّها على قبره حتى تفرغها ، فلم يزلنَ يفعلن ذلك حتى صار تراب قبره مِسْكاً أذفر ، فقبره هناك مشهور .

---

(١) انظر في هذا الطبقات الكبرى (٣/٢٢٣ و ٢٢٤) ، والمعارف (ص ٢٢٩) ، وسير أعلام النبلاء (١/٤٠) ، والعقد الفريد (٤/٣٢٣) ، وانظر هذا في ترجمة طلحة في الاستيعاب وأسد الغابة .

مع مصعب بن الزُّبير :

* لما توفي زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّديق تزوَّجها أميرُ العراق مصعب بن الزُّبير القُرشيّ الأسديّ ، وكان مصعبٌ فارساً شجاعاً ، جميلاً وسيماً يُحْسَدُ على جماله ، وفيه يقول عُبيد الله بن قيس الرُّقيّات :

إنّما مصعب شهابٌ منَ اللّـ
ـهِ تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُه ملكُ عزّة ليس فيها
جبروتٌ منه ولا كبرياءُ
يتّقي الله في الأمور وقد
أفلح مَنْ كان همّه الاتقاءُ

* وكان مصعب يتمنّى أنْ يتزوّج عقيلة قريش وجميلتها عائشة بنت طلحة ، ولذلك قصة تجمع بين الطّرافة والرّقة ، وتدلُّ على علو الهمّة .

ففي جِلْسةٍ بفناء الكعبة المشرّفة جمعتْ عبد الله ، ومصعب ، وعروة ، بنو الزّبير ، وعبد الله بن عمر ـ وقيل عبد الملك بن مروان ـ فقال لهم مصعب : تمنوا فقالوا : ابدأ أنت . فقال : ولاية العراق وتزوّج سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، فنال ذلك وأصْدَقَ كلَّ واحدةٍ منهما خمسمئة ألف درهم وجهّزها بمثلها .

وتمنّى عُروة بن الزّبير الفِقْه ، وأنْ يُحمل عنه الحديث فنال ذلك .

وتمنّى عبد الملك بن مروان الخلافة فنالها .

وتمنّى عبد الله بن عمر الجنّة ، ولعلّ الله عزّ وجلّ قد غفر له[1] .

* وتزوّج مصعبٌ عائشةَ ، وكانت أجمل نساء زمانها وأرأسهن ، حتى إنّ حسانَ النّساء في زمانها قد شهدن لها بالجمال ، ووصفْنَها بأحلى الصّفات . وهذه شهادة عظيمة لعائشةَ ، فإنّ المرأةَ أعرف بالمرأة وأبْصَر من الرّجل ببرائر الحسن المكنون .

* * *

مِنْ طَرَائِفِ أَخْبَارِهَا :

* يبدو من أخبار عائشةَ أنّها كانت قاسية بعضَ القسوة مع زوجها مصعب ، فكانتْ تخاصمه وتُلاحيه أحياناً ، ولها في هذا أخبارٌ طريفةٌ ، ومواقفُ ظريفة .

* وَرَدَ أنّها غضبتْ يوماً على مصعب ، وكانت من أحبّ النّاس إليه ، فشكا ذلك إلى أشعب[2] ، فقال : ما لي إنْ رضيت ؟ .

قال : حكْمُك .

قال أشعب : عشرة آلاف درهم .

---

(١) انظر القصة بأساليب متقاربة في الحلية (١٧٦/٢) ، ووفيات الأعيان (٢٩/٣ و ٢٥٨) ، وعيون الأخبار (٢٥٨/١) ، والبداية والنهاية (٣٢٢/٨ و ٣٢٣) ، وسير أعلام النبلاء (١٤١/٤) ، وغيرها من المصادر .

(٢) هو أشعبُ بن جُبير المدني ، الذي يُضرب المثل به في الطّمع . روى عن عكرمة وأبان بن عثمان ، وسالم بن عبد الله ، وله نوادر مشهورة . توفي سنة (١٥٤ هـ) رحمه الله . (فوات الوفيات ٣٧/١) .

قال مصعب : هي لك .

فانطلق أشعبُ حتى أتى عائشةَ فقال : جُعلتُ فداك ! هذه حاجة قد عرضت لي تقضين بها حقي ، وترتهنين بها شكري .

قالت : وما عَناكَ يا أشعب ؟ .

قال : قد جَعَل لي الأميرُ عشرة آلاف درهم إنْ رضيتِ عنه .

قالت : ويحك لا يمكنني ذلك .

قال : بأبي أنتِ فارضي عنه حتى يعطيني ، ثم عودي إلى ما عوّدكِ اللهُ من سُوء الخُلُق .

فضحكت منه ، ورضيتْ عن مصعب .

* وكانت عائشةُ رحمها الله كثيرة الإعجاب بنفسها ، كثيرة الدّلال على زوجها ، يصلُ ذلك إلى حدِّ الإسراف أحياناً ، فمن حديث ذلك أنّ مصعباً أتاها وهي نائمةٌ متصبّحة ـ نومة الغداة ـ ومعه ثماني حبّات لؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، وتثر اللؤلؤ في حجرها ، فقالت له : نومتي كانت أحبّ إليّ من هذا اللؤلؤ[1] .

* وشكا مصعب كثرة إعجابها بنفسها إلى عبد الله بن أبي فروة كاتبه ، لعلّه يجدُ له مخرجاً أو حلاً يخلصّه من إسراف عائشة في الدّلال والهجران .

فقال له : أفتأذن لي في الحيلة ؟ .

---

(١) نوادر المخطوطات (١/٧٧) .

قال مصعب : نعم ، اصنعْ ما شئتَ فإنّها أفضل من فلتُ من الدُّنيا . فأتاها ابنُ أبي فروة ليلاً ، فاستأذنَ عليها .

فقالت له : هذه السّاعة ؟ .

قال : نعم ، ففزعتْ ـ ومعه رجلان أسودان ضخمان ـ فقالت له مولاة لها : ما شأنُك ؟ .

قال : شُؤْمُ مولاتك عائشة .

قالت : وما لها ؟ .

قال : أمرني هذا الفاجر ، أسْفَكَ مَنْ خَلَقَ الله لدَمٍ حرام وأقتله للنّاس ، أنْ أحتفرَ بئراً وأدفنها فيه حيّة ، وقد حرصتُ ـ والله ـ أنْ يعفيني من هذا فأمر بقتلي .

قالت : فأنظرني أذهب إليه .

قال بلهجة الجادّ الحازم : هيهات لا سبيل إلى ذلك أبداً . ثم قال للأسودين بنبرة أشدّ حزماً : احْفِرا .

فبكت عائشة ورأت الجدّ منه .

وقالت : يا بن أبي فروة ، إنّك لتقتلني ؟ .

قال : ما منه بدٌّ ، وإنّي لأعلمُ أنّ الله سيخزيه ، ـ أو سيجزيه ـ بعدك : ولكنّه قد غضبَ وهو كافرُ الغضب .

قالت : فأيّ شيءٍ أغضبه ؟ .

قال : في امتناعك عليه ، وقد ظنّ أنّك تبغضينه ، وأنّك تتطلعين إلى

غيره فقد جُنَّ .

فقالت : أذكّرك اللهَ إلا عاودته .

قال : أخاف أنْ يقتلني .

فبكتْ وجواريها ، فلما رأى ذلك ، ولمس أنّها استكانتْ ؛ قال لها : قد رققْتُ وأنا أغررُ بنفسي فما أقولُ لمصعب ؟ قالت : اضمن عني أنّي لا أعود أبداً ـ أي إلى المخالفة ـ قال : فأعطيني المواثيق ، فأعطته .

فقال للأسودين : مكانكما .

ثم أتى مصعباً فأخبره بما جرى ؛ فقال له مصعب : استوثق منها بالأيمان .

فأتاها فقال : إنّه قد سكنَ بعض السُّكون ، فاحلفي لي أنْ لا تخالفيه ، فوثقتْ له ، وصلحتْ لمصعَب بفضل ذلك الدَّرس البديع الطَّريف[1] .

وأخبارها في هذا كثيرة لا يتسع المقام لذكرها هنا .

* * *

بَعْدَ مُصْعَب :

* بعد مقتل مصعب عنها : تزوّجها عمر بن عبيد الله بن معمر التَّيمي ، وأقامت معه ثماني سنين ، حيث مات سنة (٨٢ هـ) فبكته

(١) عن نوادر المخطوطات (١/ ٨٠) بتصرف يسير جداً .

قائمة . وكانت العرب إذا ناحتِ المرأةُ على زوجها قائمة علموا أنها لا تتزوّج بعده .

* ومنذ أنْ تأيّمتْ ، كانت تقيمُ بمكةَ سنة ، وبالمدينة سنة ، وتخرجُ إلى مالٍ لها بالطّائف تدير أمورها بنفسها ، وكان لها بذلك أخبار مع الشُّعراء ، تدلُّ على دقّةِ فهمها وحسن رأيها وجودة أدبها ، رحمها الله .

* * *

منْ أخْبارِ جَاهِهَا وفَخْرِهَا :

* كانت عائشةُ بنتُ طلحةَ في بَسْطَةٍ من المال يُحسبُ حسابها ، وكانت تحبُّ أنْ ترى أثر نعمة اللهِ عليها . فقد ورد أنها لما أرادتِ الحجَّ حملتْ متاعها ، وما تحتاجُ إليه على ستين بغلاً من بغال الملوك عليها الهوادج والرّحائل ، فقال عروةُ بن الزُّبير أحد الفقهاء السّبعة (١) :

عـائشَ يـا ذات البغـال الستّـين
أكلّ عـام هكـذا تحجّـين ؟

---

(١) الفقهاءُ السبعة : مصطلح ظهرَ عند أهل المدينة ، أرادوا به الفقهاء المبرزين بالمدينة من التّابعين ، ويبدو أنّهم كانوا يتشاورون ويصدرون عن رأي فيما يعرض عليهم من قضايا . وهؤلاء الفقهاء السّبعة ـ ومن في طبقتهم ممن عاصرهم ـ حملوا المشعل من الصّحابة ، وأضاؤوا فيه بقية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة ، وكانوا هم المدرسة التي كوّنت الفقهَ المدنيّ وجعلت له كياناً متميزاً أساسه الإفتاء بما أفتى به السّابقون من الصّحابة الكرام بالإضافة إلى الاجتهاد بآرائهم . والفقهاء السّبعة هم : سعيدُ بن المسيب ، عروة بن الزّبير ، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، خارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار ، رحمهم الله .

* وهذه الصِّفات جعلتْ عائشة تفخر على مَنْ سواها بما أنعم الله عليها من نِعَمٍ ظاهرة وباطنة ، فقد ورد أنّها حجّتْ مرة مع ـ ضرّتها ـ سكينة بنت الحسين ، وكانت عائشة أحسن آلةً وثِقْلاً ، فقال حاديها يحدو بقول عروة بن الزبير :

عـائش يـا ذات البغـال الشّهبْ
أكلَّ عـام هكـذا تحجّـين؟

فشقَّ ذلك على سُكينة ، ونزل حاديها فقال :

عـائش هـذه ضرّةٌ تشـكوكِ
لولا أبـوهـا مـا اهتـدى أبـوكِ

فأمرتْ عائشة حاديها أنْ يكفَّ ، فكفَّ احتراماً لسُكينة .

* ويبدو من أخبار عائشة رحمها الله أنَّ حبَّ الفَخْر كان من سجاياها ، فكانت تفاخر أمّها ، وقد حدَّثَ إسحاق بن طلحة ـ وهو أخوها لأبيها ـ قال :

دخلتُ على أمِّ المؤمنين ـ عائشة ـ وعندها عائشةُ بنتُ طلحةَ وهي تقول لأمِّها أمّ كلثوم بنت أبي بكر : أنا خيرٌ منك ، وأبي خيرٌ من أبيك .

قال : فجعلتْ أمّها تُنسبها وتقول : أنتِ خيرٌ مني ؟! فقالت عائشة زوج النّبي ﷺ : ألا أقضي بينكما ؟ قالتا : بلى .

قالت : فإنَّ أبا بكرٍ دخل على رسول الله ﷺ فقال له : « أنت يا أبا بكر عتيق الله من النّار » ، فمن يومئذ سُمّيَ عتيقاً .

ودخل طلحة بنُ عبيد الله عليه فقال :

« أنتَ يا طلحة ممن قضى نحبه[1] » .

* * *

مَعَارِفُهَا وعِلْمُهَا :

* قَلَّ أنْ نجد امرأة أوتيت سعةً منَ المال ، ورُزقت حظّاً منَ الجمال ، أنْ تهتمَّ بالمعرفةِ والعلم ، غير أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة ومَنْ في طبقتها من النِّساء كنَّ يختلفْنَ عن غيرهن من النِّسوة ممن يشغلهن الدِّيباج والحليّ والحُلل عن كلّ شيء .

* فقد كانت عائشةُ رحمها الله ذات عقل وبديهة حاضرة ، وجرأة في الكلام ، وسَعَة في المعارف المتنوعة ، ومن الأخبار التي تشهد لها بالعلم والجرأة على قول الحقّ ، ما روي أنّها وفدت على هشام بن عبد الملك بدمشق .

فقال لها : ما أوفدك يا عائشة ؟ .

قالت : حَبَسَتِ السَّماءُ المطر ، ومَنَعَ السُّلطان الحقّ .

قال : فإنّي أصل رحمكِ ، وأعرفُ حقَّكِ .

ثم بعث إلى مشايخ بني أميّة فقال : إنَّ عائشةَ ابنة طلحة التَّيميّة عندي ، فاسمروا عندي الليلة ، فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضتْ معهم فيه ، وما طلع نجمٌ ولا غَارَ إلا سمّته . فقال لها هشام متعجباً : أمّا الأول ــ أخبار العرب وأشعارها ــ فلا أنكره ؛ وأما النُّجوم فمن أين لكِ هذا ؟

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢١٠) .

قالت : أخذتُها عن خالتي عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها . فأمر لها هشام بمئة ألف درهم ، ورُدّها إلى المدينة رداً جميلاً معززةً مكرّمة[1] .

* وظلّتْ عائشةُ بنتُ طلحة من أندرِ نساء عصرها حُسناً وجمالاً ، وهيئةً وأدباً ، وعفّةً وعلماً ، إلى أنْ توفيتْ سنة (١٠١ هـ) .

رحمَ الله عائشة بنت طلحة ، وتغمّدها برحمته .

* * *

(١) أعلام النساء (١٥٤/٣) .

أحمد خليل جمعة

نساء من عصر التابعين

أم الخير بنت الحريش

www.dawahmemo.com

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٥)

أم الخير بنت الحريش

* تابعية ، فصيحة ، شجاعة ، وفدت على معاوية ، قوّالة بالحق ، حكيمة ، لها أقوال مأثورة .

أُمُّ الخَيْرِ بِنْتُ الحُرَيْش

المَنْزِلَةُ العُظْمَى :

* بعد عام الجماعة ، ومع صلح الحسن بن علي لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ، ظلّ حبُّ كثيرٍ من النّاس لآلِ البيت ، وشجرة رسول الله ﷺ لاصقاً بقلوبهم ، متغلغلاً في نفوسهم .

* ومع قربهم من عصر النّبوّة ، ومعرفتهم آل بيت النّبوة ، فقد كانوا يُنزلون آل النّبيّ ﷺ من قلوبهم أسمى المنازل وأقدسها ، ويعتقدون حبّهم ديناً وعقيدة ؛ لأنه حبٌّ لرسول الله ﷺ ، وقربة يتقرّبون بها إلى الله عزّ وجلّ ، وحبُّهم هذا حبٌّ يمثله قول المكفوف في آل سيّدنا محمّد ﷺ :

أُحِبُّكُمْ حُبّاً على الله أجره
تضمّنه الأحشاءُ واللّحمُ والدّمُ[1]

* من هذه الفئة الكريمة تأتي تابعيةٌ عرفت باسم : أمّ الخير بنت الحُرَيش بن سراقة البارقيّة الكوفيّة[2] ، إحدى النّسوة اللاتي قدمن على معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وكان لها معه حديثٌ ومحاورة تفصحُ عن

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٨/١) .

(٢) تاريخ دمشق (من ٥١٢) ، والعقد الفريد (١١٥/٢) ، وأعلام النساء (٣٨٩/١) .

بلاغةٍ مكنونةٍ وجزالةٍ رصينةٍ ، وتظهرُ فصاحتها البيّنة وقوّة حجّتها وشجاعتها وكمال أدبها .

* وقد عرفت أمُّ الخير بنت الخريش بأنّها متكلمة بليغة من بليغاتِ الكوفة ، وذات رأي سياسي معروف لدى العاصمة الأموية بدمشق ، وأنّها ذات لسان لا يقاومه السِّنان ، ولعلَّ كلماتها في بعض المواقف كانت أشدّ تأثيراً من سيوف الرِّجال ، فهل أتاك نبأُ قدومها على معاويةَ ؟ .

* * *

أمُّ الخَيْرِ وكِتابُ مُعاوِيَةَ :

* يبدو من ثنايا الأخبار التي وصلتنا عن أمِّ الخير هذه ، أنّها امرأةٌ ذات مكانةٍ لا يُستهان بها في قومها ، وذات مكانة واحترام عند معاوية أيضاً ، وكما تدلُّ الأخبار بأنَّ رأيها كان مكان احترامٍ منْ ولاة الكوفة ، وكلُّهم يحسب لها حساباً ، حيث إنّها عُرفتْ بالاستقامة وعدم المحاباة لأحد ، واشتهرت بالصَّراحة التّامة والجرأة فيما تحبُّ أنْ تقولَ ، لهذا كلّه نالت أمّ الخير احترام جميع النّاس .

* ولمّا استقرَّ الأمر لمعاوية رضي الله عنه ، ـ وكان يعرف أمّ الخير من قبلُ ـ أحبَّ أنْ يسمعَ إلى أثارةٍ من كلامها ، ونبذٍ من حكمتها وفصاحتها ، ليعلم رأيها ـ الحالي ـ فيه وفي دولته .

* وتجمعُ الرّوايات التي وعتها المصادر بأنَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ كتبَ إلى واليه بالكوفة أنْ أوفدْ عليَّ أمَّ الخير بنت الخريش بن سراقة

البارقيّة ، وأوصاه أنْ تكون رحلتها رحلة محمودة الصُّحبة ، غير مذمومة العاقبة ، وأعلَمهُ أنّه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً ، وبالشرّ شراً .

* فلما ورد الكتاب على الوالي[1] أسرع وركب إليها ، فأقرأها كتاب أمير المؤمنين إياه ، عندئذ قالت له :

أمّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعة ، ولا معتلّة بكذب ، ولقد كنتُ أحبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمورٍ تختلجُ في صدري ، تجري مجرى النّفس ، يغلي بها غَلي المِرجل بحَبِّ البُلُسُن ـ العَدَس ـ يوقد بجزل السَّمُر ـ أصل الشجر ـ .

* * *

صَرَاحَتُهَا وَقَوْلُهَا لِلْحَقِّ :

* واستعدت أمُّ الخير للتوجّه إلى الشّام ، ولقاء أمير المؤمنين معاوية ، وكان الوالي يبرُّها ويلطف أشد اللطف عساها أنْ تذكرَه بخير عند أمير

---

(١) لعلّ الوالي هو المغيرة بن شعبة . قال الطبريّ : وأقام المغيرةُ على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً ، وقد وليها سنة (٤١ هـ) .
والمغيرةُ بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفيّ ، أبو عبد الله ، من كبار الصّحابة أولي الشّجاعة والمكيدة ، يقال له : مغيرة الرأي . ولد بالطّائف سنة (٢٠ ق . هـ) وأسلم سنة (٥ هـ) ، وشهد بيعة الرّضوان واليمامة وفتوح الشّام ، وذهبتْ عينُه باليرموك ، ولّاه عمر على البصرة ثم ولاه الكوفة ، وأقرّه عثمان على الكوفة ثم عزله ؛ ولما حدثت الفتنة بين عليّ ومعاوية اعتزلها المغيرة . ثم ولّاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها إلى أنْ مات في شعبان سنة (٥٠ هـ) وله سبعون سنة ، وللمغيرة (١٣٦ حديثاً) وهو أول من وضع ديوان البصرة ، وأول من سُلّم عليه بالإمرة في الإسلام وأخباره كثيرة ـ رضي الله عنه ـ . (سير أعلام النبلاء : ٤/٢١ ـ ٣٢) ، و (الأعلام : ٧/٢٧٧) .

المؤمنين ؛ ولكنّ أمّ الخير ليست كغيرها من النّسوة اللاتي تأخذهن العاطفة ذات اليمين وذات الشمال ، بل كانت جريئة تحبُّ قَوْلَ الحقّ من أجل الحقّ ، وهذا ما أفضتْ به إلى الوالي وأفهمته إياه ، إذ إنّه لما حَمَلَها وشيّعها ، وجهزّها أفضل جهاز وأحسنه ، وأراد مفارقتها قال لها : يا أمّ الخير ، إنّ معاويةَ أمير المؤمنين كتب إلي أنّه يجازيني بقولك في بالخير خيراً ، وبالشّر شراً ، فانظري كيف تكونين ؟ !

قالت : يا هذا ، لا يطمعنّكَ ـ واللهِ ـ برّكَ بي في تزويقي الباطل فأسرّكَ به ، ولا تؤيسك معرفتي بك أنْ أقولَ فيك غير الحقّ .

* وبهذا برهنت أمُّ الخير على استقامتها في حياتها ، وعلى صراحتها قولاً وفعلاً ، ووعدت أنْ تقولَ الحقَّ ، وأنْ تضعَ النّقاط في أماكنها من الحروف ، فلا وَجَل ولا خوف إلا من الله سبحانه وتعالى .

* * *

ذِكْرَيَاتٌ فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ :

* تركت أمّ الخير البصرة ، وتوجهت تلقاء دمشق ، وسارت خير مسير ، فلما قدمت على معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنزلها بيتاً مع الحُرَم ثلاثة أيام ، ثم أذن لها في اليوم الرّابع بالدّخول عليه ، وعنده جلساؤه وخواصه .

فقالت : السّلام عليك يا أمير المؤمنين .

قال : وعليك السّلام يا أمّ الخير ، وبالرّغم منك دعوتني بهذا الاسم .

قالت : مه يا هذا ، فإنّ بديهة ـ مفاجأة ـ السُّلطان مُدْحِضة

ـ مبطلة ـ لما يجب عِلْمه ، ولكلِّ أجلٍ كتاب .

قال : صدقتِ يا خالة ، فكيف حالك ؟ وكيف كنتِ في مسيرك ؟

قالت : لم أزل في عافية وسلامة حتى صرتُ إليك ، فأنا في مجلس أنيق ، عند ملَكٍ رقيق .

فقال معاوية : بحسن نيتي ـ والله ـ ظفرت بكم ، وأُعِنْتُ عليكم .

قالت : مه يا هذا ، والله لك من دحض المقال ما تُردى عاقبته .

قال : ليس هذا أردناك يا أمّ الخير .

فقالت : إنّما أجري في ميدانك ؛ إذا أجريتَ شيئاً أجريتُه ، فاسألْ عمّا بدا لكَ .

قال معاوية : أخبرينا كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر رضي الله عنه ؟

قالت أمُّ الخير : لم أكنْ والله رُوّيته قبل ، ولا رَوّرته بعد[1] ، وإنّما كانت ـ يومها ـ كلماتٌ نفتهن لساني عند الصَّدمة ، فإن شئتَ أنْ أحدثَ لك مقالاً غير ذلك فعلتُ وقلتُ .

قال :لا أشاء ذلك يا أم الخير .

ثم بعد ذلك التفتَ معاوية إلى أصحابه وجلسائه ، ـ وقد عاودته ذكريات قديمة ـ فقال لهم : أيكم يحفظ كلام أمّ الخير يومذاك ؟

---

(١) « رويت في الأمر » : فكرت فيه . و « زورت الكلام » : زينته وحسنته وهذبته .

فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي لسورة الحمد ـ الفاتحة ـ .

فقال معاوية : فهاتِهِ .

قال : نعم ، كأني بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم ، وعليها بُرْدٌ زَبيدي[1] كثيف النَّسج ، وهي على جَمَلٍ أَرْمَكَ ـ رمادي اللون ـ وقد أُحيط حولها حَوَاء[2] ، وبيدها سوط منتشر الضَّفيرة ، وهي كالفحل يهدر في شِقْشِقَتِه تقول :

﴿ يا أيها النَّاس اتقوا ربكم إنَّ زلزلة السَّاعة شيءٌ عظيم ﴾ [الحج : ١] ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أوضحَ الحقَّ ، وأبانَ الدَّليل ، ونوَّرَ السَّبيلَ ، ورفعَ العِلْم ، فلمْ يدعْكُم في عمياءَ مبهمةٍ ، ولا سوداءَ مدلهمّةٍ ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ـ عليّ ـ أمْ رغبةً عن الإسلام ، أمِ ارتداداً عن الحقِّ ؟! . أما سمعتم اللهَ عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصَّابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ [محمد : ٣١] هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل .

ثم قالت : ﴿ قاتلوا أئمةَ الكُفْرِ إنَّهم لا إيمان لهم لعلَّهم ينتهون ﴾ [التوبة : ١٢] ، صَبْراً معاشرَ المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرةٍ منْ ربكم ، وثباتٍ من دينكم ، فكأنِّي بكم غداً قد لقيتم أهل الشَّام ﴿ كأنَّهم حُمُرٌ مستنفرة * فرَّتْ من قَسْوَرَة ﴾ [القيامة : ٥٠ و ٥١] ، لا تدري أين يُسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة

(١) « الزبيدي » : نسبة إلى زبيد بلدة باليمن مشهورة .

(٢) « الحواء » : ما يتخذ كالوسادة على الرحل .

بالدّنيا ، واشتروا الضّلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، ﴿ وعمّا قليل ليصبحن نادمين ﴾ [المؤمنون : ٤٠] حين تحلّ بهم النّدامة ، فيطلبون الإقالة ﴿ ولات حين مناص ﴾ [ص : ٣] .

ثم قالت : إلى أين تريدون رحمكم الله ؟ عن ابن عمّ رسول الله ﷺ وزوج ابنته ، ... ... ها هو مُفلق الهام ، ومكسّر الأصنام ، إذ صلى والنّاس مشركون ، وأطاع والنّاس مرتابون ؛ قد اجتهدتُ في القول ، وبالغتُ في النّصحية ، وبالله التوفيق ، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

فقال معاوية : والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلي والله لو قتلتُكِ ما خرجتُ ـ أثمتُ ـ في ذلك .

قالت : والله ما يسؤوني أنْ يُجريَ الله قتلي على يدي من يُسْعدني الله بشقائه !.

* * *

قَدْ أَعْفَيتُكِ :

* بعد أن انتهى هذا الحوار الذي يدلُّ على شجاعة أمّ الخير وعلى بلاغتها بآن واحد ، أحبَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنْ يعرف رأيها في فضلاء الصّحابة وأسيادهم ، وأنْ تصفهم ببلاغتها وفصاحتها ، ففعلت لما سألها عن سيدنا عثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، وأجابته إجابة

---

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٥١٣ ـ ٥١٥) ، والعقد الفريد (٢/١١٥ ـ ١١٨) ، وأعلام النساء (١/٨٣٩ ـ ٣٩٢) بشيء من التصرف والاختصار .

شـافيـة كافيـة صـادقة ، ووفّت كلّ ذي حقٍّ منهم حقّه من الإعظام والتكريم ، وبما هو له أهل ـ رضي الله عنهم ـ .

وابتدأ معاوية سؤاله لها فقال : يا أمّ الخير ، ما تقولين في عثمانَ بن عفان أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الرّاشدين رضي الله عنه ؟

قالت : وما عسيتُ أنْ أقولَ فيه ! استخلفه النّاس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون .

فقال معاوية : إيهاً ـ حَسْبُكِ ـ يا أمّ الخير ! هذا والله أصلَكِ الذي تُبْنين[1] عليه ؟ قالت :

﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء : ١٦٥] واللهِ ما أردتُ بعثمان نقصاً ، ولقد كان سبّاقاً إلى الخير ، وإنّه لرفيعُ الدّرجة غداً عند مليك مقتدر .

* وسكتَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لحظاتٍ ثم سألها قائلاً : فما تقولين في طلحةَ بنِ عُبيد الله رضي الله عنه ؟

قالت : وما عسى أنْ أقولَ في طلحة رضي الله عنه ؟ اغتيل في مأمنه ،

---

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان ـ رضي الله عنه ـ هو الذي دفعها إلى مناصرة علي رضي الله عنه .

(٢) طلحة بن عبيد الله : أحد السّابقين الأولين ، والأبطال المعلمين ، وعاشر عشرة بشّرهم رسول الله ﷺ بالجنّة ، وسادس ستة اختارهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأوّل صحابي بايع علياً ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمل ، وأصيب هنالك بسهم أودى به ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ، وأخباره كثيرة مباركة لا تنحصر في كتاب .

وأتي من حيثُ لم يحذر ، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنّة .

فأردف معاوية قائلاً : فما تقولين في الزُّبير بن العوام[1] رضي الله عنه ؟

قالت : يا هذا لا تدعني كرجيع الثَّوب الصَّبيغ يُعرك في المِرْكَن[2] .

قال معاوية : حقاً لتقولنَّ ، وقد عزمتُ عليك .

قالت : وما عسيتُ أنْ أقول في الزُّبير ابن عمّةِ رسول الله ﷺ وحواريّه ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنّة ، ولقد كان سبّاقاً إلى كلّ مكرمةٍ في الإسلام رضي الله تعالى عنه .

ثم صمتتْ لحظات ، وأحبّتْ أنْ يعفيها من مثل هذه الأسئلة ، أو أنْ يغيِّر الحديث فقالت : وإنّي أسألك بحقّ الله يا معاوية ، فإنّ قريشاً تحدّث أنّك أحلمها ، فأنا أسألك أنْ تسعني بفضل حلمك ، وأنْ تعفيَني من هذه المسائل ، وتسألني عما شئت من غيرها .

قال : قد فعلتُ ، ونعمة عين ، وقد أعفيتُك منها . ثم أمر بها فردّها

---

(١) كان أمر الزبير حيال عليّ ـ رضي الله عنهما ـ شبهاً بأمر طلحة ، كان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، فأرسل إليه عليٌّ يذكره بقول رسول الله ﷺ له : « لتقاتلنه وأنت له ظالم » فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فما انتهى إلى وادٍ يقال له : وادي السّباع أحدثه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له : خمرو بن جرموز .

(٢) « الصّبيغ » : الثوب المصبوغ ، « العرك » : الدلك والحكّ ، « المركن » : الأنية ، أي : لا تركني كالثوب المصبوغ الذي يُدلك فيغير الماء .
والمعنى : تريد من معاوية ألا يحرك كوامن نفسها ، ويكدر صفاءها الذهني والنفسي .

إلى الكوفة مكرّمةً بعد أنْ وصلها بجائزة رفيعة ، وأحسن منقلبها[1] .

* * *

نبذٌ من حِكَمِها ورَقائِقِها :

* إنّ امرأة مثل أمّ الخير بنت الحريش البارقية ، أوتيتْ من الفصاحة والبلاغة ما يعجز عنه البلغاء ، لجديرة أنْ تُؤثر عنها الرّقائق والحكم التي تصقل النّفوس ، وتهذّب الطّباع ، وترقّق القلوب ، وتدنيها من منابع الصّفاء . فمن روائع أقوالها التي أثرت عنها ـ يوم صفّين ـ قولها تناجي الله عزّ وجلّ ، فقد ورد أنّها رفعت رأسها إلى السّماء وقالت : اللهم إنّه قد عِيل الصّبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرّعيّة ، وبيدك اللهم أزمّة القلوب ، فاجمع اللهم الكلمة على التّقوى ، وألّف القلوب على الهدى .

* ومن بديع قولها في بيان أهل الحق ، وبيان أهل الباطل قولها أيضاً : مَنْ ضلّ عن الحقّ ، وقع في الباطل ، ومَنْ لم يسكن الجنّة نزل النّار ، إنّ الأكْياس استقصروا عُمْر الدّنيا فرفضوها ، واستطالوا مدّة الآخرة فسعَوْا لها . ولولا أنْ يبطل الحقّ ، ويظهر الظّالمون ، وتقوى كلمة الشّيطان لما اختاروا ورود المنايا على خفْض العيش وطيبه[2] .

* تلكم هي أمّ الخير بنت الحريش البارقية ، وذلكم هو وفاؤها ورأيها ؛ وتلك أخلاق القوم عصر ذاك ، أخلاق فيها صرامةٌ وجراءةٌ وعنفٌ بالقول ـ أحياناً ـ وحريةُ رأي ، وقوةُ شكيمة .

---

(١) عن العقد الفريد (٣/١١٨ ، ١١٩) بتصرف يسير جداً .

(٢) انظر تاريخ دمشق (ص ٥١٤ و ٥١٥) .

* وقد استمعنا إلى رأي أمّ الخير في تلك المشكلة التي أسالت الدماء ، وحيرت العقول حيناً من الدّهر ، ورأينا صورةً فريدة عن المرأة الشّابعية في خطابتها ووقوفها أمام الخلفاء ، وإعلان رأيها صراحة في آل البيت وبني هاشم ، هؤلاء الذين :

نورُ النّبوّةِ والمكارمُ فيهم
متوقّدٌ في الشّيْبِ والأطفال

* رحم الله أمّ الخير البارقية ، وجعلها مع الأخيار .

* * *